علو الهمة في تحمل المسؤولية.. والفاعلية

أين حملة المسؤولية.. من يَحْمِل هَمَّ الإسلام؟

دَهْرُنا هذا قد غَرْبَلَ أَهْلِيه أشدَّ غَرْبلة، وسفسف أخلاقهم، وخَبَّث أعراقَهم، وسَفَّه أحلامهم، واحتوى عليهم الجَهل؛ فلبثوا في غير سبيل الرُّشد، يعلِّلون أنفسهم بالباطلِ، وذلك من أَدَلِّ الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سَدِّ ثغرهم، حتى ظَلَّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عِرَاص دورهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم منهم طرفًا ويبيد أمة، ومَن لديْنا وحوالينا صُمُوت عن ذكرهم، لُهَاة عن بثِّهم، ما إن يسمع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكِّر لهم أو داع لهم، فضلًا عن نافر إليهم أو مُوَاسٍ لهم؛ حتى كأنهم ليسوا منَّا، أو كأن فتقهم ليس بمُفْضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، فَبُؤْنَا بالعناء، عجائب فَاتَتِ التقدير»[1].

أمورٌ لوْ تَدَبَّرَها حَكيمٌ ... إِذَنْ لَنَهَى وَهَيَّبَ ما استطاعَا

□ ولله در القائل:

قالوا سَهِرتَ وفي فؤادك حُرْقَةٌ ... تُدْمِي وألف تساؤلٍ يَتَردَّدُ

وعلى جبينك قصَّةٌ مكلومَةٌ ... تَرْوِي المآسي للجميع وتسرُدُ

ودموعُكَ الملأى بألف حِكايةٍ ... رَسَمَتْ على خدَيَّكَ نارًا تُوقَدُ

أنا يا صِحَابُ من الجراح مُعَذَّبٌ ... في كل أرض جُرحنا يتمدَّدُ

---

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (٣/ ٢٥٥).

في كُـلِّ أرضٍ تُـسـتباحُ دماؤنـــا ... في كُـلِّ أرضٍ يُـستباحُ المـسجِدُ

□ كُلٌّ منهم: أساءَ ذهَابًا في الكِبْر، وتهاونًا بالأمْرِ، وقُعودًا عن النَّصْر، واستظهارًا بأحزاب الكُفْر، سِلْمُه باطِلٌ وبَطَالَة، وحَرْبُه غِوَايَةٌ وجَهَالة، في المشركين نجومُه وَدَيْمُه، ولهم مواثيقهُ وذِمَمُهُ، وفي المسلمين سَمُومُه وحميمُه وعِنْدَهم بوائقُهُ ونِقَمُهُ».

هل من فتى؟!!! يقول «واإسلاماه» و«واإسلاماه».

إذا القومُ قالُوا مَنْ فتًى؟ خِلْتُ أَنَّني ... عُنيـتُ، فلـم أَكْـسَل ولم أَتبَلَّـدِ[(١)]

□ هَل من فَتًى؟!

إنَّ الفَتَـــى حَمَّـــالُ كُـــلِّ مُلِمَّـــةٍ ... لـــيسَ الفتـــى بِمُـــنَعَّمِ الـــشُّبَّانِ

□ واإسلاماه

لا يَنْهضُ الشَّعبُ إلَّا حينَ يَدْفَعُـهُ ... عَزْمُ الحياةِ، إذا مـا اسـتيقظتْ فيـهِ

والحَـبُّ يخـترقُ والغَـبْرَاءَ منـدَفِعًا ... إلى الـــسماء إذا هبَّـــتْ ســـناديهِ

والقيدُ يألَفُـهُ الأمـواتُ، مـا لِبثُـوا ... أمَّـــا الحيـــاةُ فيُبليهـــا وتُبْلِيـــه

✍ في واقعنا المُرِّ يقعُدُ الناس حيارَى كُسَالى ضائعين، أو يحسبوا أنهم ليسوا مسؤولين إذا افتُقِد العلماء، أو ضَعُفُوا عن القيام بواجبهم.

«وإن كون العلماء حياة الأمة وأساس منطلقها إلى الخير، يجب ألا يخفف في نفوسنا معنى المسؤولية الفردية، ومعنى القيام بالواجب. ويجب ألا ينسينا الأوامر العظيمة والتحذيرات الخطرة في كتاب الله وسنة نبيه

---

(١) «ديوان طرفة» المُعَلَّقة.

ﷺ، الدافعة لكل فرد مسلم إلى بيع النفس والمال في سبيل الله، أي: في سبيل دعوة الحق، وفي سبيل الأمة الإسلامية، والإنسانية كلها»(١).

إن حالة سيئة جدًّا تشاهد في البلاد الإسلامية لدى طلاب الكليات - وهم العنصر الهام في بناء الأمة- ولدى العلماء، والمثقفين، والمفكرين، كل هؤلاء لا تجد لديهم حرارة الاندفاع في سبيل إنقاذ الأمة، وفي سبيل إصلاحها ولا تجد لديهم طمأنينة الواثق بعمله المؤمن، بأن جهاد العامل المخلص، لا بد وأن يلقى نصيبه من النجاح، وأن من المستحيل جمع كلمة المسلمين، ومن العسير القيام بأي عمل مجد.

هذا الطابع الذي طبع عليه المسلمون اليوم، قلة الاهتمام بشأن الأمة، وضعف الثقة، والعزوف عن القيام بالواجب الأكبر والجهاد في سبيله، والاحتجاج بأن المسؤولية تقع على العلماء والأمراء، هذا الطابع وهذه المعاني هي أخطر ما يهدد الأمة الإسلامية.

اليأس القتَّال والخَوُر المميت والثقة المفقودة، كل هذه هي العدو الحقيقي، والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي الصهيونية، والصليبية، والدعوات الملحدة، فكلها أمرها يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا لنقر فيها معاني الإيمان، واليقين، والصبر والجلد، والثقة، والعمل.

إن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم، كامنة في النقص في تربية أفرادهم، والضعف الذي أصيب به أبناؤهم.

* وأكبر المصائب أن يصاب الفرد في نفسه، ذلك أن معالجة أي خطر

---

(١) «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص٨٣).

ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للشدائد.. بيَّنَ الله تباركت أسماؤه بشأن يهود بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم لم يؤتوا في نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو منعة حصونهم، ولكنهم أصيبوا من قبل أنفسهم إذ قذف الله في قلوبهم الرعب، فكان ذلك أكبر المصائب وكان العامل في تسليم ديارهم وتخريب بيوتهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر].

* وقد أتي المسلمون اليوم من قبل أنفسهم، وقذف الوهن في قلوبهم، والله تباركت أسماؤه يناديهم من علياء سمائه نداءه الأزلي، يقول لهم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

□ قال أحد الباحثين المحدثين: «إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط، داخلية لا خارجية، وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها».

* والقرآن الكريم، يهدي إلى هذه السنة، ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل].

تحديد المسؤولية:

إذا أجرينا استفتاء في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية، طارحين

السؤال السابق. لوجدنا أن تسعة وتسعين في المئة من أفراد المجتمع يقولون: إنا لا نحمل أي تبعة، ولا يصح أن يوجه إلينا أي لوم. ذلك أنه ليس بيدنا أية سلطة وليس لنا توجيه الأمة، وإن قلنا فلا يسمع لقولنا، ولذلك فنحن أبرياء من كل تبعة فدعونا أيها اللائمون ووجهوا سهام نقدكم إلى فريقين من الناس العلماء والأمراء.

وليس من شك في أن هذا القول نصيبًا كبيرًا من الحق، ولكن ليس الحق كله، كيف لا يكون في هذا القول نصيب من الحق؟! وقد أوجب الله في كتابه إيجابًا طاعة أولي الأمر. وهل تكون الطاعة إلَّا لمن يحمل أمر الأمة ويكون مسؤولًا عنها؟! قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

• وطاعة أولي الأمر واجبة ما أطاعوا الله ورسوله لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها قرنان فقد قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١).

وقد أمر جلَّ شأنه الرعاة والولاة بأداء الأمانات إلى أهلها، وأكبر مهام الولاة ونهاية ألمعيتهم وبعد نظرهم هو في اختيار الأكفَّاء.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير**

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك» عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وكذا رواه الطيالسي، والطبراني في «المعجم الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٩)، و«تخريج المشكاة» (٣٦٩٦)، و«صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

أهله فانتظر الساعة»[1].

وهذه الرواية جعلت ضياع الأمانة مساوية لتوسيد الأمر إلى غير أهله، وجعل ذلك كله مساويًا لخراب الكون وقيام الساعة، وهذه نظرة لا تخرج إلَّا من معدن النبوة، فليس صلاح الحال إلَّا بتولية الصالحين، وليس فساده إلَّا بتولية المفسدين. وليس انتقاء الصالح أمرًا يسيرًا ذلك أن الصالح الذي يجمع بين الخبرة التامة والمعرفة الكاملة والإخلاص ونزاهة اليد، نادر أشد الندرة. ولقد أتعب هذا الانتقاء الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يقول: «إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه».

ليس من المغالاة أن يقال: إن سر عبقرية المسؤولين، معرفة الأشخاص، وحسن انتقائهم، والأمة التي مهرت في هذا في العصر الحاضر هي الأمة الإنكليزية، والمثل السائر عندهم «خير إنسان في خير مكان».

ومن المؤسف أن أغلب الأمة تعتقد بأنه ليس على الأفراد تبعة، حتى الذين يعتبرون في قمة الثقافة وذروة التوجيه، وقد يكون فيهم الأدباء والكتاب والمفكرون والمربون.

أفحق أن هؤلاء وأمثالهم لا يجب أن يحملوا تبعة، ولا يسوغ أن يوجه إليهم لوم؟ أحق أن أمثال هؤلاء ليس لهم أي دخل؟

والصحف ووسائل الإعلام والدعاة، كل هؤلاء مسئولون في البلاد الإسلامية عن توعية الشعوب توعية صحيحة، وإيقاظ وجدانها وإيقافها

---

(١) رواه البخاري، وقد سبق تخريجه.

على الأخطار التي تحدق بها، وهذه الوسائل اليوم توجه الأمم، وتلعب بالعقول ويسيطر عليها اليهود في كبريات دول العالم، ومن المؤسف أن ما يتناوله الكتاب في البلاد الإسلامية، وما تذيعه دور الإذاعة، لا يتناسب والنكبات التي تعانيها البلاد.

* ولعل من الخير أن نأتي على طرف يسير من مكانة القيادة في الأمة وفي حياة الأمة، وحسبنا ما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

[النحل: ١٢٠].

□ قال ابن كثير: «قال مجاهد: «أمة» أي أمة وحده، فحياته حياة أمة وموته موت أمة. والأمة في الآية بمعنى الجماعة، وقال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يبعث أمة وحده؛ لأنه لم يشرك في دينه غيره**».

وليس ينكر منكر مكانة القيادة في توجيه الأمة. وليس يجحد أحد أن القيادة تستطيع أن تغير صفحة التاريخ، والمثل الأعلى للقيادة محمد ﷺ، فقد نقل الأمة العربية من جاهليتها إلى حضارة لا تجارى، ونقل العالم من جاهليته إلى حضارة إنسانية سامقة.

ومن أمثلة القيادة الرائعة، قيادة صلاح الدين الذي طرد الصليبيين من بيت المقدس. ومن أمثلة القيادة الخالدة، قيادة ابن تيمية عليه رحمة الله ولم يكن ذا سلطان ولا ملك، ولقد تألب عليه أعداؤه وحساده، ومات عليه رحمة الله في سجنه وخلف من بعده رجالًا يناضلون عن الحق وينافحون في سبيل العقيدة والدين الخالص.

وليس يستطيع أن ينكر منكر أن جماعة من الجماعات مهما كان لونها لا تستطيع أن تسير دون توجيه القيادة. والقيادة الرشيدة هي التي تسخر

جميع طاقاتها وكل قواها في سبيل حماية الجماعة ومنعتها وقوتها، وتقاس كفاءة القيادة بمقدار نجاحها في تنظيم الجماعة، وتجنيد كل فرد من أفرادها للإسهام في خدمة أهداف الجماعة ولا يتم ذلك إلَّا بمعرفة دقيقة بالأفراد ووزن صحيح لمواهبهم في الحياة والمجالات التي يستطيعون النجاح فيها، واتصال حسن بهم، وفهم عميق لنفوسهم منبعث عن روح اجتماعية قادرة على النفوذ والتأثير. ونتيجة ذلك كله توسيد الأمور إلى أهلها وإلى خير من يقوم بها، وحصيلة ذلك أن تسير الجماعة سيرًا مطردًا، وقد رضي كل فرد بمكانه وعمله، فبذل أحسن جهد، وأعطى خير انتاج. وهكذا تقاس كفاءة القيادة بما تحدثه من تغيير في إنتاج الجماعة، ومفتاح عبقرية القيادة معرفتها بالرجال.

عزل عمر خالدًا، وولى مكانه أبا عبيدة، فظل خالد يعمل تحت لواء أبي عبيدة وإمرته، وانتهز خالد فرصة، ففتح قنسرين وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية. وكانت كلمة عمر التي قرظه بها «أَمَّرَ خالد نفسه رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال»، إنها كلمة خالدة سجلت عبقريات ثلاث، عبقرية خالد، وعبقرية أبي بكر، وعبقرية عمر يجر أذياله وراء أبي بكر ويتابع خطواته رضي الله عنهم.

وليس ينكر منكر، أن القيادة تقدم للناس نماذج قوية، وأمثلة رائعة يحتذيها الناس وسيرون وراءها، ومن عادة الإنسان أن يتعشق القوة، ويرهب البطولة وتأخذ المعاني الرائعة بمجامع قلبه وتسري إلى فؤاده، فتوقظ مشاعره وتفتح وجدانه، فتستبين له معاني الحق واضحة قوية، فيسهل عليه اتباعها.

ولولا رسول الله ﷺ، لما كان أصحابه الأقربون، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم.

ولكن السؤال الأول الذي يجب أن يطرح هو ما يلي:

أكان القائد يعمل وحده؟ وما سر نجاحه؟ وما مدى تأثير التجاوب بينه وبين إخوانه في نجاحه؟ وبتعبير آخر، ما مدى تأثير بيئته عليه وعلى نجاحه؟ وهل التأثير متبادل بين القائد وأتباعه وبيئته؟ «بمعنى أن القائد يؤثر ويتأثر فالتفاعل مشترك»؟

أليس في التاريخ عبقريات قد أطفئت؛ لأن البيئة لم تستطع أن تستجيب لها؟ أليس هنالك قيادات تضيع لسبقها على زمنها سبقًا شاسعًا؟ لِمَ لَمْ يؤمن مع نوح عليه السلام بعد أن دعا قومه قرابة ألف عام إلَّا قليل جدًّا؟ ألم يقيض الله للرسل أصحابًا وحواريين؟ ألم يقيض الله لمحمد ﷺ أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا، والزبير، وطلحة، وسعدًا، وسعيدًا، وأبا عبيدة، وعبد الرحمن بن عوف، وخالدًا، والمهاجرين السابقين، وأصحاب البيعة الكبرى، وأصحاب بدر، والأوس، والخزرج رضي الله عنهم؟

□ قد يقال: إن محمدًا ﷺ قد نفخ في أصحابه روح البطولة. ذلك حق، وحق أيضًا أن استعدادهم كان يؤهلهم لذلك، ولم يكن للوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وهشام بن الحكم، وعقبة بن أبي معيط وأكابر مجرميها الذين قتلوا في بدر، وسحبوا إلى القليب، لم يكن لدى هؤلاء مثل ذلك الاستعداد.

□ إن الذين يلقون التبعة عن كواهلهم، ويحملون القيادة التبعة كلها، ينظرون إلى القضية من طرف واحد، ويحتجون بالدليل في أحد جوانبه وهم

يشبهون بمن يقول: إن الحب هو الذي ينبت الزرع، فيحسب السامع أن الحب قادر على إنبات الزرع وحده، والحق أن ذلك محال إذ لا بد من تربة، ولا بد للتربة من شروط، فإذا لم تكن التربة جيدة، كان النبات سقيًا عليلًا. وعلى هذا فشأن التربة، ليس بأقل من شأن الحب الذي يلقى فيها، وكذا الحال في الجماعة ليس شأنها بأقل من شأن القيادة في نجاح الأمة.

▫ استطاع الإسلام أن يحقق الانسجام التام بين الجماعة والقيادة، فالطاعة واجبة للقيادة، وامتثال أمرها والسير في دائرتها والإخلاص لها، كل ذلك فرض على الأفراد محتم عليهم المضي فيه، ولكن جانب الأفراد محترم أيضًا فليس عليهم إلَّا الطاعة في الحق، وهذه غاية العدل وأعلى درجات الإنصاف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا يشمل كل المعاني السامية والمثل الأخلاقية والعدالة التامة والتزام الجادة، فإذا انحرفت القيادة أو حادت أو خالفت فلا طاعة، ولا امتثال. إلى جانب كل هذا واجب الأفراد، النصح للقيادة وتبصيرها بالحق وتحذيرها من اتجاه يبعد عن هدى أو يؤدي إلى ردى.

▫ كل هذا مغزاه ومؤداه إلى أن الأفراد في المجتمع الإسلامي ليسوا آلات ولا أدوات. ولكنهم جانب أساسي يعمل إلى جانب القيادة بصدق وإخلاص ونصح، يراقب أعمال القيادة ويمحضها النصح فهو جانب واعٍ يقظ، ليست مسؤوليته وأعباؤه بأقل من مسؤولية القيادة وأعبائها؛ وهذه قولة عمر رضي الله عنه: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

▫ وكل هذا مؤداه إلى خطأ الفكرة التي شاعت في المجتمعات الإسلامية، تلك الفكرة التي أدت إلى تقاعس الأفراد عن الاهتمام بشأن

الأمة، وزهدهم في التفكير فيما أصابها، وإعراضهم عن التدخل في شؤونها التدخل البصير الواعي الحكيم.

وهي الفكرة التي يخشى خطرها، وقد نشأت بعد الخلافة الراشدة في العصور التي بدأ فيها الانحراف عن معاني القرآن.

وقد غدت – بكل أسف- هذه الفكرة فكرة الجماهير في المجتمعات الإسلامية. هي فكرة انسحابية انعزالية، تنافي روح الإسلام وطبيعته، تلك الروح التي ترمي إلى تنمية ذاتية الفرد، ودفعها إلى أقصى درجات نمائها وقوتها في سبيل الخير والمعاني المثالية وصالح الجماعة.

وأدى ذلك على أن أصبح أفراد المجتمع دون المستوى الذي يطلبه الإسلام من وعي وانتباه، ووجد الدخلاء ثغرة واسعة للدس والإفساد وبث أحابيل المكر ونشر مصائد الكيد في جماعة غافلة نائمة.

إن الواقع المؤلم المرير أن الجماعات المعادية تجد مرتعًا خصبًا في البلاد الإسلامية، مرتعًا ليس هنالك من يحميه فلا يكفها عن كيدها زاجر، ولا يردعها رادع، ولا يحول بينها وبين شرورها عيون يقظة أو عقول ساهرة، ولكنها تتجمع كما تتجمع الجراثيم الفتاكة، وتنتظم وتعمل، وأفراد الأمة مشتتون، موزعون، غافلون، ولو انتبهوا انتباهة واحدة؛ لرأوا أما يشده العقول من مكر العدو وجرأته ومخططاته.

لقد غفلنا عن العدو، ثم فتحنا أعيننا في نوم، فإذا العدو جاثم على صدورنا متمكن من رقابنا، إن القيادة لا تستطيع أن ترعى كل صغيرة وكبيرة، إلَّا إذا كان كل فرد في رعيتها مجندًا واعيًا متيقظًا، يرى أنه على ثغرة يجب أن يحميها، يرصد العدو ويرقب حركاته، فإذا رآه اقترب أو

حاول التسلل. كانت صيحة الإنذار، وصرخة الخطر، والنداء للضرب على يد العدو وسحقه.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة، طار على متنه يبتغي القتل أو الموت في مظانه**».

✍ أنت على ثغرة فلا يؤتين الإسلام من قبلك. هذه المعاني توحي بيقظة الأفراد في الجماعة الإسلامية، وحرصهم على حماية الجماعة، وتوحي بفشل أولئك النائمين الغافلين وتخاذلهم، وإن المرء ليتساءل: أيعتبر هؤلاء من أفراد الجماعة؟

كل فرد له حق الحماية والرعاية، وكل فرد مسؤول عن دائرته ومنطقته، وبذلك يشارك الأفراد جميعًا في بناء الجماعة وحمايتها وتوجيه دفتها.

فمن المسؤول إذن؟

• قال رسول الله ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**».

□ إنَّ أصل الإسلام قائم على حمل مسؤولية، وأداء أمان، والقيام بواجب؛ ذلك أن الأصل الأول الذي يقوم عليه الإسلام ولا يخرج عن حكم من أحكامه ولا فرع من فروعه، ولا تخرج عنه حركة من حركات المؤمن ولا سكنة من سكناته، هو توحيد الله جل شأنه في ألوهيته، وفي

ربوبيته، وفي صفاته؛ فهو وحده المستحق للعبادة، وهو وحده الخالق الرازق مالك الملك، بيده الأمر، وهو وحده المتصرف القاهر، وهو المستعان وحده والمستغاث به وحده.

ويتبع هذا كله أن يكون الإنسان عبدًا لله خاضعًا لأوامره؛ محياه لله ومماته لله ونسكه لله، ومثل هذا المؤمن في هذا المستوى ليس إنسانًا يعيش لطعامه وشرابه وملذاته، ولكنه يعيش لربه وخالقه، قد باع نفسه وقدم ماله لخالقه جل شأنه، ومثل هذا يعيش لله ويجاهد في سبيله.

وليس هذا المؤمن من النوع الذي لا يحمل همًّا لأمته، ولا يعاني نصبًا ولا وصبًا في سبيل جماعته، ولكنه النوع الذي يحمل رسالة ويؤدي أمانة، تلك الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.

المؤمن يحمل رسالة ويؤدي أمانة، والذي يحمل رسالة يحمل بصيرة ويحمل إرادة، ولا يكون آلة مشلولة(١).

لفتة دقيقة جميلة من آية كريمة:

* قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥].

وفي الآية الكريمة لفتة دقيقة، فهي تجعل خلافة المؤمنين هذه في الأرض خلافة عامة تشمل المؤمنين جميعًا فالوعد للذين آمنوا جميعًا لكل من صدق عليه وصف الإيمان، والاستخلاف في الأرض لهم جميعًا، وفي

---

(١) «المسؤولية» (ص٨٩- ٩٠).

هذا المعنى إشارة واضحة إلى أمرين اثنين:

أولهما: أن هذه الخلافة لا يستبد بها فرد من المؤمنين، بل هي مشتركة بينهم جميعًا، فكل مؤمن خليفة من عند الله، وكل واحد مسؤول أمام ربه عن هذه الخلافة كما جاء في الحديث: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»، فليس أحد منهم في هذا الشأن وفي جميع الشؤون الاجتماعية، بأحط منزلة من الآخرين.

• قال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهدٍ في عهده**».

• وفي لفظٍ آخر: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ عَلَى مَن سِوَاهم، يردُّ مُشِدُّهُم على مُضعَفِهِم، ومُسْرِعُهُم على قاعدهم، لا يُقتل مؤمن بكافرٍ، ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِه**»[(١)].

الثاني: أن المسلمون في هذه الخلافة جماعة واحدة ويد واحدة وجسم واحد؛ وليس معنى إنتقاء واحد من المسلمين ليقوم بشؤون المسلمين أن الآخرين أصبحوا في حل من الاهتمام بشؤون الأمة وضاعت مسؤوليتهم، بل الجميع مسئولون على سبيل التعاون والتآزر والتكامل والتكافل[(٢)].

---

(١) حسن: رواه أبو داود، وابن ماجه عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٢٠٨)، و«صحيح الجامع» (٦٧١٢).

(٢) «المسؤولية» (ص١٥٠- ١٥١).

إن تربية الإسلام هي تربية تنمية روح المسؤولية:

وللقيادة مكانتها وحبها واحترامها، لكن الإسلام أوجد الانسجام الكامل بين طاعة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تمثل الفكرة الإسلامية تمثيلًا صحيحًا، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين تنمية روح المسؤولية في الأفراد وروح حمل التبعة.

إنها الطاعة الواعية التي لا يذوب فيها الأفراد في القيادة، وجهاد في سبيل العقيدة.

من عُلُوِّ الهمَّة في تحمُّلِ المسؤولية أن لا نُدافِعَ عن ذواتنا بشكل حيلٍ لا شُعُوريَّة:

إننا حين نتحدث عن المجتمع الإسلامي، وحين نبدأ بالشعور بالألم نجد المعاذير قد تبدت وألوانها من الحجج الواهية قد برزت مسوغة ما نحن فيه من تقصير، معلنة أن الأمر لا دفع له، وأنه ليس بيدنا حول ولا طول. ذلك أن ما هو واقع من فعل القدر، ومن يستطيع رد القدر؟!

• وهذا الواقع قد أخبرت به الروايات الصادقة عن رسول الله ﷺ، فهو إذن لا بد من وقوعه، وأي محاولة لدفعه محاولة تؤدي إلى الإخفاق، فقد روى مسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»**[1].

وهناك أعذار ترجع الأمر إلى الماضي وإلى التاريخ فما نحن فيه إنما هو

(١) رواه مسلم (٢/ ١٧٧)، ويأرز: أي ينضم ويجتمع. وبين المسجدين، أي: مسجدي مكة والمدينة.

ثمرة الأيام الماضية ونتيجتها، وليس لنا فيه صنع، ولا دخل لنا به. وهناك أعذار أخرى ترجع الأمور إلى تضافر الناس جميعًا في الشرق والغرب على حرب المسلمين والكيد لهم واستعمار بلادهم واستعباد أفرادهم، وإلَّا لكان المسلمون بنعمة وعافية.

وهنالك أعذار وأعذار..

هذا الدفاع عن أنفسنا، وهذه الأعذار كلها مغالطات نفسية وحيل لا شعورية، ذلك أنها تريد أن تبرئنا من كل خطأ، وتزيح عن كواهلنا الاعتراف بالتقصير.

إن المشكلة ها هنا أكبر بكثير، والاستعداد لها أضأل بكثير، وهنا كانت الطامة، صعاب من أكبر الصعاب ومشكلات من أعظم المشكلات، وفتن تحار بها العقول، وأنواع من المكر تشيب لها الولدان، كل ذلك يقابل بنفوس ضعيفة وعزائم مسترخية وهمم مستخذية.

الاعتذار بالقدر:

إن المسلمين الذين أخفقوا في ميادين الحياة.

وجولات البطولة، وينحون باللائمة على القدر وعلى الأيام وعلى الآباء والأجداد وعلى كيد الكائدين من الأعداء، ولا يخطر في بال أحدهم أن يعود على نفسه بِذَرَّة من اللوم ويسير من العتاب يبصره بخطئه، ويضع يده على تقصيره آثمون إن الاعتذار بالقدر حيلة شيطانية وخديعة من الإنسان لنفسه.

* فالذي يرتكب معصية، ويلوم القدر كذاب أشر. هكذا جاء في الآية القرآنية: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

* فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وهكذا شأن من قصر في أداء واجب واتهم القدر، كاذب في دعواه.

إن تقصيره أمر واقع محسوس ملموس، وتقصيره مرده إليه، فكيف يدع الاعتراف بتقصيره الذي يدركه ويحسه ويفر إلى القدر، وهو أمر مغيب مجهول ليس إليه تدبيره وليس له به علم.

ولقد دفع أصحاب رسول الله ﷺ القدر بالقدر، دفعوا الكفر والفسوق بالجهاد والاستبسال والموت، وغيروا وجه الدنيا وأطفئوا عبادة الأوثان بالإيمان الصادق.

أما في مجتمعنا الإسلامي - فمع الأسف الشديد حين يتحدث المتحدثون عن واقع المسلمين وما يلاقونه في شتى ديارهم، ومختلف أصقاعهم من ظلم وعسف وبغي واضطهاد، وحين يشعر فريق من المسلمين بوخز يسير في ضمائرهم وألم طفيف في مشاعرهم، ينبري هؤلاء أنفسهم يدفعون عنهم ما يجدون، فيسوغون لأنفسهم ما هم فيه من قعود ونكوص بألوان من المعاذير وأصناف من الحجج الواهية: فالزمن قد أدرك نهايته والفتن كقطع الليل.

وبمثل هذه الحجج التي يقدمها الشيطان وتسولها النفوس المريضة، سبعمئة مليون مسلم في العالم الإسلامي يسومون سوء الخسف ويتلظون بنار الهوان، وينطلقون جميعًا بدعوى واحدة، دعوى الضعف والموت

المعنوي، وبهذا الفهم السقيم الهزيل وبهذه الروح الضعيفة الخائرة يعطل المسلمون معاني الإسلام القوية ويصمون آذانهم عن نداءاته التي تتصدع لها الجبال، ويعرضون عن رفع رايته والاستظلال بعظمته.

* كثير منا اليوم -أعني: المسلمين- يتصفون بصفات بعيدة عن صفات المؤمنين حقًّا وهم يرون أنهم أحسن الناس إيمانًا. ألسنا نعتذر بمعاذير شبيهة بالمعاذير التي كان يقدمها المنافقون حين قالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، فقال لهم الله - تباركت أسماؤه-: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [التوبة].

* وقال تعالى حاكيًا طريقتهم في الاعتذار فاضحًا نواياهم كاشفًا عن نفوسهم الخاسرة وقلوبهم المريضة، قال تعالى على لسانهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)﴾ [الأحزاب].

* ونحن اليوم نقول - وإني لفي طليعة هؤلاء القائلين-: لا نستطيع أن نعمل في سبيل الله، ولا نستطيع أن نجاهد في سبيله، نخشى أن نتخطف من الأرض، ونخشى أن يموت أولادنا وأهلونا جوعًا. والحق أنا ما نريد إلَّا فرارًا. وقد نسينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات].

* نسينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال]. يتوكلون على ربهم فلا يخشون موتًا ولا يخشون فقرًا.

وقد حكى الله تبارك أسماؤه قولة المنافقين في غزوة أحد حين رجعوا

عن القتال فجرى وراءهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبدالله فقال: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم وبينكم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبو إلَّا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

* قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالًا لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة.

* وقال تعالى في شأنهم: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

* وقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم.

* إن معاذير المسلمين اليوم ليست معاذير صادقة، ليست تلك المعاذير التي يصدق عليها قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١]. ولكنها يصدق عليها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾ [التوبة].

* ومن المعاذير التي يقدمها المسلمون وفيها ضلال عن دين الله، وانحراف عن كتاب الله؛ الاعتذار بالقدر، وأن ما واقع بالمسلمين أمر الله وقضاؤه ولا راد لأمره ولا دافع لقضائه. ولست أنسى مسلمًا من المسلمين

كان خطيبًا في قرية من قرى الشام مدعيًا محبة العلم وأهل العلم، كنت أكلمه فيما أصاب المسلمين فأراد نصحي ودعوتي إلى الخير فتلا علي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. فهو يرى كمال الإيمان في التسليم والرضا والإذعان، وإن طغى الكفر وعم الفسوق، وكدت أتميز من الغيظ للذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ولكني تصنعت الأناة وتكلفت الحلم، وحاولت أن أخرجه مما هو فيه من ضلال وزيغ.. وقد اقتنع عقله بعد جهد جهيد بخطأ قوله واعتقاده.

كثير من المسلمين يحتجون بالقدر، ويتخذون من حجتهم هذه ذريعة للمضي في دنياهم وسعيهم من أجلها وتهالكهم عليها، وقعودهم عن نصرة دين الله.

□ قال الإمام شمس الدين بن القيم الدمشقي رحمه الله في كتابه «طريق الهجرتين» بعد أن سرد أحاديث القدر: «فالجواب أن ها هنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك. فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن،وإن شاء الناس».

الآثار كلها تحقق هذا المقام وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه. وهذا في كل

كتاب أنزله الله على رسله.

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء.

□ وسمعته – يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: «القدرية المذمومون في السُّنَّة، وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة: نفاة القدر: وهم «القدرية المجوسية»، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: لو شاء الله ما أشركنا وهم «القدرية المشركة»، والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم «القدرية الإبليسية»، وشيخهم إبليس وهو أول من احتج على الله بالقدر، قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف]، ولم يترف بالذنب ويبؤْ به كما اعترف به آدم، فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه، فقد أشبه أباه آدم ومن أشبه أباه، فما ظلم ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس.

وأما «القدرية الإبليسية والمشركية» فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله، لا يقر بأمر ولا نهي وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ..﴾ [الأنعام: ١٤٨].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ

هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يس].

فهذه أربعة مواضع في القرآن الكريم بيَّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

تحريف معاني الأحاديث الصحيحة لتسويغ قبول الواقع:

• كذلك احتج كثير من المسلمين بالأحاديث التي جاءت في كتب الفتن وقد أساءوا فهمها، وعكسوا الغرض منها. ولكم سمعنا من خاصة المسلمين وعامتهم أن رسول الله ﷺ قد قال: «**لا يأتي عليكم زمان إلَّا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[(١)].

□ قال الشيخ الألباني في شرح هذا الحديث: «إنه من العام المخصوص؛ فعندما نفهمه في ضوء الأحاديث الأخرى التي تبيِّن وجود الخلافة الراشدة بعد المُلْك الغضوض وغيرها، نعرف أنه من العام المخصوص».

وهؤلاء المتخاذلون جميعًا يستخلصون من قول رسول الله ﷺ أن الأمر ميئوس منه، فأي فائدة في الدعاء وأي ثمرة من النداء؟

وهكذا تنحدر النفوس الضعيفة بالمعاني السامية فتنزلها إلى مستواها المتدني، وهكذا تفهم هذه النفوس تحذير رسول الله ﷺ من الفتن وتخويفه منها على أنها دعوة لتيئيس الناس من العمل ومن الجهاد، وتعطيل لآيات

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب لا يأتي زمان إلَّا الذي بعده شرٌّ منه رقم (٦٨٠٧).

الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف يمكن مع فهم هؤلاء أن تستجيب لقول الله تعالى: ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وأن الله تباركت أسماؤه قد أخبرنا بأن الشدائد تصيب المسلمين، ويدال عليهم ويغلبون ليتبين المؤمنون، ويتقدم المجاهدون. ولو أن المسلمين أخذوا برأي هؤلاء اليائسين الميئسين لاستسلموا للتتار، ولغارات الصليبيين أبد الدهر، ولما وجد من يحمل الراية في الأيام العصيبة، ويقدم نفسه وماله في ساعات الشدة.

• أيعقل أن يكون الغرض من حديث رسول الله ﷺ وهو يحذر أصحابه الفتن وهو سيد المرسلين وقائد الأبطال الميامين وهو الذي قدم أعلى مثل لحياة المجاهد الذي لا يفتر ولا يكل ولا يغفل طرفة عين. الذي يقول: «**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**»(1).

أيعقل أن يكون كلامه دعوة لليأس واستسلامًا للقنوط؟! لا، وإيم

(1) وقد أخرج هذه القصة مختصرًا الطبراني في «الأوسط» و«الكبير».

الحق، ولكنها وسوسة إبليس وحيلة ضعيفة من نفوس خائرة هزيلة.

ليس كلام رسول الله ﷺ بهذه المنزلة التي وضعوه فيها، ولكنه أجل وأرفع. وما غرض رسول الله ﷺ إلَّا التنبيه للفتن، حتى إذا أدرك المسلم زمانها، أخذ حذره وأعد لها عدته، وعاش عيشة اليقظ المتحفز، يخشى أشد الخشية أن تأخذه الفتن في مسيرتها أو أن تطويه في ثناياها.

ولقد ملكت الفتن كثيرًا من المسلمين، وطوت كثيرين، لم تدع بيتًا إلَّا دخلته ولا مسلمًا إلَّا سخرته، وطغت في بلاد المسلمين وطمت وعمت، والمسلمون غافلون، وكثير منهم يحسب أنه في منجاة من تلك الفتن التي ذكرها رسول الله ﷺ.

* ومن عجب أن يقلب المسلمون معاني كتابهم ومعاني سنة نبيهم لتصبح معاني رخيصة ويصبح الغرض منها الرضا بالواقع الأليم، ولقد صدر البخاري كتاب الفتن في «صحيحه» بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والفتنة في الأصل: إدخال الذهب في النار لتظهر جودته. ومن هنا كانت الفتنة بمعنى الاختبار، وتطلق على العذاب، قال في «القاموس»: «والفتنة»: الضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب والإضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء»، وعلى هذا فالسكوت على المنكر وتفرق الكلمة، والقعود عن الجهاد، وتقليد اليهود والنصارى، كل هذا من الفتن، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾. أي: إن أصابتكم فلا تقتصر إصابتها على الذين ظلموا وحدهم، بل تشملهم وغيرهم، وتعم الجميع بسبب شؤم الصحبة،

وتعدي الرذيلة كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

فالآية الكريمة تحذير للمؤمنين من وقوع الفتنة في المجتمعات الإسلامية، وبيان لطبيعة الفتنة ومبلغ شرها، فهي تبدأ في عدد يسير من الأفراد، ثم لا تلبث أن يستفحل أمرها ويطغى شرها، فإذا انتهت إلى هذا الحد خرجت من أيدي المصلحين، ولم يعد بالإمكان كف شرها أو كبح جماحها، وهذا هو المشاهد الملموس اليوم في البلاد الإسلامية في فتنة المدينة الغربية، وواجب المسلمين الوقوف أمام الفتنة وقطع دابرها من يومها الأول، هذه تعاليم القرآن وهدي محمد ﷺ وقد جاءت الأحاديث محذرة أولئك الذين ينساقون في تيار الفتنة.

• فعن أسماء بنت الصديق رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني** –أي: يؤخذون من عند رسول الله عليه صلوات الله– **فأقول: أمتي! فيقول: لا تدري مشوا القهقرى**»(١).

□ قال ابن أبي مليكة أحد الرواة من التابعين: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن»، فهل يفهم من الحديث إلَّا التحذير من الوقوع في الفتنة، وأعظم الفتن اليوم فتنة المدنية الغربية في فلسفتها وآرائها الزائفة وعبادتها للمادة وافتتانها بالمال والنساء، ولهوها ولغوها وغنائها وفجورها.

• والرواية الثانية يرويها البخاري عن مغيرة عن أبي وائل، قال: قال عبد الله، قال النبي ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض** – الفرط: المتقدم إلى

---

(١) رواه البخاري.

الحوض ليهيئه لأصحابه- **ليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني** –أي: سلبوا من عندي- **فأقول: أي رب أصحابي يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١).

✍ وجاءت الأحاديث تبين ما على المؤمن أن يفعل في أيام الفتن:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، مات ميتة جاهلية**»(٢).

وفي الحديث الأمر بالصبر وليس المراد من الصبر السكوت على المنكر، يعرض ذلك الأحاديث الواردة في التحذير الشديد من السكوت على المنكر، كما يعارضه الحرص على الجماعة، فهل يستقيم أمر الجماعة إذا عم المنكر؟ ولكن الحديث فيه هدى إلى لزوم الجماعة، والصبر على الدعوة إلى الحق وعدم السكوت عن المنكر وعلى النصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

• وروى البخاري في «صحيحه» عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: «**اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلَّا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» سمعته من نبيكم ﷺ.

وقد أرشدنا الحديث إلى الصبر على التزام الأوامر واجتناب النواهي مهما اشتدت الأمور واحلولك الظلام.

• وروى الحاكم في «مستدركه» عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبراني عن أم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

مالك اليهبزية: «**خير الناس في الفتن رجل آخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخفونه، ورجل معتزل في بادية يؤدي حق الله الذي عليه**»(١).

□ قال النووي: «في الحديث بيان فضل العزلة في أيام الفتن، إلَّا أن يكون له قوة على إزالة الفتن فيلزمه السعي في إزالتها عينًا وكفاية.

والحديث واضح بيِّن يهدي إلى العلاج الناجح، ويرشد إلى أنه ليس هنالك إلَّا سبيلان لا ثالث لهما: إما اعتزال الفتنة اعتزالًا تامًّا بحيث لا يمسه أثرها ولا يصل إليه رشاشها، وإما الخوض مع أعداء الله حاملي لواء الفتنة يخيفهم ويخيفونه ويجاهدهم لإطفاء نارها، وإخفاء معالمها. أما أنصاف الحلول بأن نعيش في رحاب الفتنة، ونفتح لها صدورنا ومنازلنا فتصيب أبناءنا وأهلينا وتجتاح ديارنا، ثم نبكي بدموع كاذبة، فليس ذلك مما وصفه رسول الله ﷺ وأرشدنا إليه، ولكنه أرشد إلى أمرين لا ثالث لهما، إما أنك ضعيف لا تستطيع مصاولة أعداء الله دعاة الفتن فلا مقام لك بينهم، ولا مستقر لك في أرضهم، ولكنك تجافيهم في بادية بعيدة، وتتجنبهم وتقاطعهم. وإما الثانية: المصاولة والمقارعة. والثانية، خير وأحب إلى الله، ولسنا اليوم في الأولى ولا الثانية، ولكنا منغمسون في الفتنة ساكتون عليها متأولون لكلام رسول الله ﷺ»(٢).

الاحتجاج بالأحاديث الموضوعة للتهرب من المسؤولية:

• روى الترمذي في «جامعه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كانت أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم**

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

(٢) «المسؤولية» (ص٥٩ - ٧٤) وزيادة قول الشيخ الألباني في معنى الحديث.

شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كانت أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

وإني لأعلم أن مثل هذا الحديث يروق كثيرًا من المسلمين، ويصيبهم شيء من الخشوع لدى سماعه، ذلك أن معانيه في رأي كثيرين تنطبق على حال أكثر المسلمين في أكثر البلاد الإسلامية اليوم، والحديث يقول: «**فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**».

□ والشارح المناوي يقول: فلا حرج في تمني الموت حينئذ. ويبين الشارح سبب ورود الحديث فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مت فظهر الأرض خير لكم أم بطنها؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم.. فذكره.

□ ولعلي أفجع كثيرين حين أقول: إن الحديث غير صحيح، وإن المعاني التي تضمنها من تمني الموت يجب أن تنتزع من قلوب المسلمين انتزاعًا. أما كونه غير صحيح، فالترمذي راويه يقول: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث صالح المري، وصالح في حديثه غرائب لا يتابع عليها وهو رجل صالح». يريد الترمذي أن هذا الحديث لم يروه إلَّا راوٍ واحد وهو صالح المري، وصالح المري له غرائب لا يتابعه الرواة عليها، أي: إنه يروي مرويات ليس في رواة الحديث من يقبلها ويؤيد صدق رواياتها، وهذا طعن فيه ويسمى من هذا حاله: «منكر الحديث».

□ ومن الخير ألَّا نكتفي بقول الترمذي وحده بل نرجع إلى أقوال النقاد الآخرين لنطمئن إلى حال المري هذا: أما ابن حجر فيوجز القول بشأنه في «تقريب التهذيب» فيقول: «صالح بن بشير المري: القاص الزاهد، ضعيف».

□ وهكذا يتسامح ابن حجر ويكتفي بوصفه بالضعف. فإذا أردنا زيادة تفصيل ورجعنا إلى «ميزان الاعتدال» للذهبي نجده يقول: «ضعفه ابن معين والدارقطني، وقال الفلاس: منكر الحديث جدًّا، وقال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: هو صاحب قصص ولا يعرف الحديث».

□ وروى حاتم بن الليث عن عفان قال: «كنا نحضر مجلس صالح المري، فإذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يصرعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى، كان شديد الخوف من الله».

فالحديث بإيجاز يتفرد بروايته قاص يعرف القصص، ولا يعرف الحديث. وشأن القصاصين أنهم يروون من الحديث ما لا سنام له وخطام، ينسبونه إلى رسول الله ﷺ.

لا يدعو الإسلام اتباعه إلى الموت، ولكنه يدعوهم إلى الحياة، وليس في معاني الإسلام معنى تمنى الموت، وإن اشتدت الفتن، وليس في الإسلام فقدان كل أمل، وضياع كل رجاء، ولكن روح الإسلام وروح الأمل، وروح الجهاد، وروح القوة المستمدة من عند الله، والثقة بنصره ولاطمئنان إلى عونه.

أين يقع تمني الموت من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]؟.

يخاطب بها المؤمنون في الماضي كما يخاطبون بها اليوم وإلى أبد الدهر ولفظة «الأعلون» فيها تشريف وتكريم ليس بعده تكريم، وصف بها الله جل شأنه أنبياءه، فقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه].

وبمثل هذا الخطاب خاطب الله جل شأنه هذه الأمة الإسلامية. فهل يتفق مع هذا تمني الموت القعود، والفرار من مقابلة العدو؟

• إن الذي يتمنى الموت على فراشه – ضعيف ذليل جبان- قد فقد كل أمل، وأضاع كل رجاء، ويئس من كل خير، وكل هذا يتنافى وصفات المؤمن ويتنافى وتعاليم الإسلام، فلقد قال ﷺ: «**لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**»(١).

• وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»(٢).

• وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»(٣).

• وقال ﷺ: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**»(٤).

وكل هذه الروايات في «صحيح مسلم».

• نعم صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه دعا فقال: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي**»(٥). وأين هذا من تمني الموت، ولكنه دعاء يوحي بعدم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه النسائي والحاكم وأحمد عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

الحرص على الحياة، ولا يعطي الروح السلبية التي يعطيها تمني الموت، والمرء مستضعف مستذل. وتمني أصحاب رسول الله ﷺ الموت فعاتبهم جل شأنه لا على تمني الموت؛ ولكن على جبن أصاب بعضهم حين رأوا الموت، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [آل عمران].

فالذي تمناه أصحاب رسول الله الموت والشهادة في سبيل الله، وهذا هو المعنى الذي يجب أن يشيع بين المسلمين ويملأ قلوبهم وتلهج به ألسنتهم.

وكيف يتمنى المؤمنون الموت بعد رسول الله ﷺ؟! وقد أمروا أن يحملوا رسالته، ويبلغوا دعوته، ويقتفوا أثره، ويثبتوا على طريقه، وقد أخبرهم عليه صلوات الله بأن الأمر سيتم، وبأن قصور كسرى وقيصر ستفتح عليهم، وبأنهم يستخلفون في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

أيتناسب هذا الدافع وهذا الانطلاق في حمل أعباء الدعوة والموت في سبيلها، مع تمني الموت؟!. إن حمل الرسالة، وتبليغ الدعوة واجب المسلمين في كل زمان وفي كل حين.

يجب أن تُنتزع هذه المعاني من قلوب المسلمين، معاني الضعف واليأس والخور لتحل محلها معاني الإيمان، معاني الشهادة، والموت في سبيل الدعوة.

لقد كان حزن أصحاب رسول الله ﭫ على رسول الله ﷺ عظيمًا حين وفاته، فلقد انقطع لموته ما لم ينقطع لموت نبي من قبله. ولكن أمرًا عظيمًا هو أكبر من الحزن، حمل رسالته، والمضي في دعوته، ولا يتم هذان

الأمران إلَّا على ظهر الأرض لا في بطنها، ولا يتمان إلَّا على جثث الشهداء وأرواح المقاتلين في سبيله.

إن كلمة أنس بن النضر رضي الله عنه هي النبراس الذي يجب أن يملأ قلوب المؤمنين حين قيل له: إن محمدًا قد مات فقال: «لئن مات محمد، فإن رب محمد حي لا يموت، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه». وقاتل حتى استشهد، وعلى جثته وجثة أصحابه السابقين بني صرح الإسلام»[1].

هام:

• روي أن رسول الله ﷺ قال: «**قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**».

هذا الحديث مشتهر بين المسلمين. أثير لدى كثير منهم ذلك أنه في هذه الشدائد والمحن يعطي هذا الحديث، وأمثاله كثيرًا من المسلمين شيئًا غير يسير من الطمأنينة في أن ما هم فيه هو الجهاد الأكبر، وأي طمأنينة أعظم من أن يكون المرء في الجهاد الأكبر؟ ولكن الحديث يرويه الخطيب البغدادي في ترجمة واصل الصوفي، ويرويه الديلمي عن جابر رضي الله عنه، ويقول البيهقي بشأنه: إسناده ضعيف، ويتبعه العراقي فيحكم بضعفه أيضًا، وكذا السيوطي في «**جامعه الصغير**» يحكم على الحديث بالضعف[2].

---

(١) «المسؤولية» (ص ٧٠ - ٧٨).

(٢) ونتقل هنا بالتفصيل **تخريج الشيخ الألباني لهذا الحديث** الذي ينحرف كثيرًا عن معاني الإسلام الصحيحة، وتصغيره **للجهاد والقتال في سبيل الله** الذي جعله رسول الله ﷺ =

ذروة سنام الإسلام.

قال الألباني: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

منكر: قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٦): «رواه البيهقي في «الزهد» من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف». وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكَشَّاف» (٤/ ١١٤- رقم ٣٣) بعد أن حكى كلام البيهقي فيه: «وهو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في «الكنى» من قول إبراهيم بن أبي عبلة أحد التابعين من أهل الشام».

قلت: عيسى بن إبراهيم هو البركي، وقد قال فيه الحافظ في «التقريب»: «صدوق ربما وهم»، فإطلاق الضعف عليه -كما سبق- ليس يجيِّد. وهذا هو الذي اعتمده الحافظ؛ أنه من قول إبراهيم هذا، فقد قال السيوطي في «الدرر» (ص١٧٠): «قال الحافظ ابن حجر في «تسديد القوس»: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة في «الكنى» للنسائي». ثم تعقّبه السيوطي بحديث جابر الآتي من رواية الخطيب، ولو تعقّبه برواية البيهقي السابقة لكان أَوْلى لخُلُوِّها من مُتَّهَم؛ بخلاف رواية الخطيب ففيها كذَّاب كما يأتي قريبًا بلفظ: «قدمتم خير مقدم..»، ونقل الشيخ زكريا الأنصاري في «تعليقه» على «تفسير البيضاوي» (ق١١٠/ ١) عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: «لا أصل له». وأقرَّه. وقال في مكان آخر (١/ ٢٠٢): «رواه البيهقي وضعّف إسناده، وقال غيره: لا أصل له».

وأما قول الخفاجي في «حاشية على البيضاوي» (٦/ ٣١٦): «وفي سنده ضعف مغتفَر في مثله».

فغير مستقيم؛ لأن ظاهره أنه حسن، وكيف ذلك وفي سنده ثلاثة ضعفاء، وقد اتفق من تكلَّم فيه على ضعفه؟!

ثُمَّ بعد سنين، وقفت على الحديث في «الزهد» للبيهقي (١/ ٤٢)، فإذا هو بلفظ: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ومجاهدة العبد هواه»، وكذلك رواه أبو بكر الشافعي في «الفوائد المنتقاة» (١٣/ ٨٣/ ١) من طريق عيسى بن إبراهيم البركي قال: نا يحيى بن يعلى قال: نا ليث عن عطاء عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ قومٌ عراةٌ، فقال النبي ﷺ.. فذكره.

=

أين أنت يا يوسف الأحلام، ويا حامل المسؤوليات العِظام:

□ قال معاويةُ لعمرِو بن العاص: «من طلب عظيمًا خاطر بعَظِيمتِه».

□ وكان عمرٌو يقول: «عليكم بكُلِّ أَمْرٍ مَزْلَقَةٍ مَهْلَكَة»[(١)].

□ وقال الشاعر:

لا يُدْرِكُ المَجْدَ مَنْ لا يَرْكَبُ الخَطَرَا ... ولا ينالُ العُلَا مَن قَدَّم الحذَرَا

ومَنْ أَراد العُلَا صَفْوًا بلا كَدَرٍ ... قَضَى ولم يَقْضِ من إدراكه وَطَرَا

قلت: وهذا سند ضعيف، ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف لاختلاطه، ويحيى بن يعلى؛ الظاهر أنه الأسلمي، وهو ضعيف أيضًا، وبقية رجاله ثقات.
والحديث رواه الخطيب أيضًا في «تاريخه» (١٣/ ٥٢٣- ٥٢٤) من طريق الحسن بن هاشم عن يحيى بن أبي العلاء، قال: ثنا ليثٌ به. والحسن بن هاشم؛ لم أجد له ترجمة.
ويحيى بن أبي العلاء لعلّه يحيى الكذاب، ولكن يغلب على الظن أنه يحيى بن يعلى المذكور في سند أبي بكر الشافعي والبيهقي، تحرّف اسم أبيه على ناسخ «التاريخ»، فإنه المذكور في الرواة عن ليث، ويؤيده أن السيوطي أورد الحديث في «الدرر» (ص١٧٠) من رواية الخطيب مُتَعَقِّبًا به على الحافظ ابن حجر جزمه بأن الحديث من قول إبراهيم بن أبي عبلة، فلو كان في سند الخطيب الوضّاع المذكور، لما تعقّب به السيوطي إن شاء الله تعالى ثم رأيته على الصواب في «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص٣٩) من طريق الخطيب، بدلالة أحد الإخوان جزاه الله خيرًا.
والحديث قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩٧): «لا أصل له، ولم يروه أحدٌ من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تطوّع به الإنسان..».
ثُم ذكر بعض الآيات والأحاديث الدَّالَّة على أنه من أفضل الأعمال، فكأنه رحمه الله يشير بذلك إلى استنكار تسميته بالجهاد الأصغر» انتهى من «السلسلة الضعيفة» (٥/ ٤٧٨- ٤٨١) حديث رقم (٢٤٦٠).

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٣٥)، أيْ: عليكم بجسام الأمور.

وأحْزَمُ الناس مَنْ لوْ مـاتَ مِـن ظَمَـأٍ لا يَقْرَبُ الوِرْدَ حتى يَعْرِف الصَّدَرا [(١)(٢)]

إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيدًا ويمكرون بهم مكر الليل والنهار، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم: فهنالك الحركة الصليبية، وهنالك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي وهؤلاء جميعًا يختلفون فيما بينهم، ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة.

ويعتبر هذا الجانب خارجيًّا، وهو – وإن بلغ ذروة الكيد- ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو –كما سنرى- نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم.

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم، والضعف الذي أصيب به شبابهم.

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث.

* ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية

---

(١) الصَّدَرُ: الانصراف عن الماء.

(٢) «الفلاكة و المفلكون» للإمام الدلجى (ص ١٤٠).

يدَّعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولًا، وعلى الماضي ثانيًا، وعلى مجتمعنا ثالثًا، ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

* يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أتوا من حيث لم يحتسبوا، وكان ذلك من قِبَل أنفسهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

• لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم، ولكنهم أتوا من قِبَلِ أنفسهم أيضًا. قال رسول الله ﷺ: «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها.

قال أحد هؤلاء: إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية. وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في

(١) جزء من حديث صحيح سبق تخريجه رواه أبو داود (٤١٢٩).

أصولها، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها.

* والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم، وما كسبت أيديهم، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١].

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو.

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معًا: عدو خارجي متربص ومجتمع وأفراد، والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة، فقد تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج.

✍ وليست الحياة إلَّا صراعًا تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة، ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة، تلك سنة الله منذ بدء الخليقة.

التداخل بين العاملين الداخلي والخارجي:

ولقد بلغ الضعف بالمسلمين أن وصل الأعداء – لا إلى الدس في صفوفهم فحسب بل – إلى محاولة تغيير عقول المسلمين ونفوسهم، أي: أن العامل الخارجي انتهى إلى مس العامل الداخلي والتأثير فيه وذلك غاية ما يمكن أن يصل إليه العدو من النكاية.

□ يقول شاتليه في مقدمة كتابه «الغارة على العالم الإسلامي»: «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيًّا قبل كل شيء على قواعد التربية

العقلية. ويشرح هذه الجملة فيقول: أي يجب التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم».

□ ثم يقول المؤلف: «وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلَّا بالتعليم الذي يكون تحت إشراف الجامعات الفرنسية».

✍ مما سبق يتبيَّن أن: العامل الفردي أصل العوامل الثلاثة وأقواها في ضعف أمة، أو قوتِّها.

□ إن الغوغاء والدهماء بل أكثر المسلمين الآن يلاحظ أبناء الآخرة من العلماء الربانيين والدعاة المخلصين: السطحية في تفكيرهم وأعمالهم وفي خُلُقهم وفي عباداتهم.

وما أسرع ما تقبل العامة بل والطبقة المثقفة في بلاد المسلمين الأفكار المغلوطة والمنحرفة والغامضة الخاطئة والدعايات الكاذبة، وأعقب هذا انحراف في المفاهيم، وعدم وضوح المعاني الإسلامية أو الوسائل التي تؤدي إلى هذه المعاني، وأصبح إيمانهم خامدًا هامدًا لا يدعو إلى بذل، بل ببغائِية ونعني بها: ذكر الألفاظ والتبجُّح بها وترديدها دون إدراك عميق لمدلولاتها.

ويقترن بكل هذا أيضًا ضعف القدرة لمواجهة المشكلات وإيجاد الحلول الصحيحة لها. وفشت في المسلمين الأثرة نموُّ الفردِيَّة، وضمورُ روح التضحية والتعاون، وعدم الإقدام وفقدان روح الجُرأة وانعدام روح المغامرة في سبيل الحق.

□ إن ثروات الأمة المعنوية هي أغلى وأثمن من الثروات المادية، إنها ثروة الرجال وثروة الأفكار ضيَّعتها الأمة حين لم تُحسن الأمة الاستفادة

من اختصاصات رجالها، ولم تضع كل رجل في مكانه، فأفسدت مرّتين: أفسدت بإضاعة الكسب من اختصاص المتخصِّص، وأفسدت في وضعه في غير مكانه فكانت الخسارة مضاعفة.

وسبيل الخلاص عُلُوُّ الهِمَّة في تحمُّلِ المسؤولية:

١- لا بد من كسر الأطواق وتحطيم الأغلال:

ونعني بالأغلال: تلك الأغلال التي صنعتها جاهلية العصور المتأخرة في البلاد الإسلامية تلك الأغلال التي عاش فيها المسلمون ردحًا من الزمن مستسلمين إلى الضعف والخور والتردد والحذر، مستسلمين إلى الأعراف التي تحيط بهم في الملبس والمسكن والحياة والتفكير والسلوك.

* لا بد من الخروج من آثار هذه البيئة الجاهلية التي بلغت أعماق نفوسنا، ولقد بعث الله الرسل ليحرروا الناس من الأغلال الفكرية والنفسية والخلقية، الأغلال التي وضعتها بيئاتهم ومجتمعاتهم قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولكسر هذه الأطواق لا بد من أمور:

أولها: الشعور بالأطواق شعورًا واضحًا جليًّا، وإنها لتحيط بأعناقنا ولكن أكثر الناس لا يشعرون بأي غل يحيط بهم.

ثانيها: إدراك مدى أخطارها.

ثالثها: العزيمة المصممة التي تدفع إلى كسر القيود والخروج منها، ومن حالة الإخلاد إلى الأرض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

[التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

رابعها: مشاهدة نقص البيئة وأثر هذه البيئة فينا وفيمن حولنا، وليس بالأمر اليسير إلَّا على من يسره الله له ومن فتح الله عقله، وأكبر من ذلك شأنًا القدرة على انتزاع النفس من البيئة السلبية، والانطلاق في أجواء الخير والإيمان.

ولقد كان أعظم ما أتى به المصلحون انتزاعهم أنفسهم من بيئتهم وانتزاعهم إخوانهم، ثم تقديم أمثلة جديدة وتكوين مجتمع جديد.

* ولقد نعى الإسلام على المشركين خضوعهم لآثار بيئتهم، وعدم قدرتهم انتزاع أنفسهم من ربقتها قال تعالى حاكيًا حال المشركين في جمودهم ناعيًا عليهم عدم قدرتهم على الانفلات من أغلال بيئتهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف].

* وكان زعماء مكة يحتجون بأن محمدًا يريد أن يصرفهم عن إلفهم وعاداتهم، وكان ذلك أمرًا عظيمًا لديهم، قال -تباركت أسماؤه- على لسانهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص].

وكان أبو لهب يتبع محمدًا ﷺ، ويقول للناس: إن هذا يريد أن يلفتكم عن عبادة اللات والعزى.

• ليس خروج الإنسان عن مألوفه بالأمر اليسير، ولعل خروج الروح من الجسد أهون من خروج الفرد عما ألف. لعل هذا ما كان يعنيه رسول الله ﷺ حين دعا ربه فقال: «**اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

فلقد كان ﷺ يرى صعوبة خروجهم عما ألفوا فكان يدعو الله أن يعينه على إنقاذهم.

٢- لا بد أيضًا من مُثل واقعية ونماذج قوية:

لا يتم كسر القيود إلَّا برؤية مُثل ورؤية نماذج من البشر تقدم للناس أمثلة رائعة.

يرهب الإنسان القوة ويحترم البطولة، وتأخذ المعاني الرائعة بجماع قلبه وتثري إلى فؤاده فتوق مشاعره، وتنفتح أمامه معاني الحق، ويسهل عليه اتباعه، وأعلى درجات القوة قوة الحق والدعوة إليه والصبر في سبيله.

ولولا رسول الله ﷺ لما كان أصحاب رسول الله ﷺ القريبين منه، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم من الناس ولولا الفتح لما دخل الناس في دين الله أفواجًا، وليس شيئًا من هذا ماديًّا، ولكن القوة المادية تخضع في النهاية لقوة الحق.

لقد تم الإصلاح الذي تم ببعثة محمد ﷺ، وغَيَّر صفحة التاريخ، لقد تم بمحمد ﷺ وأصحاب محمد ﷺ، وكانوا العنصر العملي التنفيذي، وكان العنصر الأول الوحي الذي كان يتلقاه محمد ﷺ من خالق الأرض والسماء، ويبلغه أصحابه. كان الوحي داعيًا إلى كسر أغلال الجاهلية، وكان الوسيلة القوية إلى ذلك محمد وأصحابه نماذج الحق والقوة التي حطمت الأغلال وأهابت بالناس أن يخرجوا أنفسهم من القيود الجائرة.

* وليس لنا من سبيل إلَّا هذه السبيل، طليعة تتأسى خطوات محمد ﷺ وأصحابه شبرًا بشبر وذراعًا بذراع في كل ظاهرة وخفية وفي كل دقيقة وجليلة، في العبادة والتفكير والحرب والتدبير والسياسة والدعوة والجرأة والحكمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ولا يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح عليه أولها كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى.

٣- رجل العقيدة لا الرَّجُلُ الصفر:

وأهم شيء في الموضوع تكوين رجل العقيدة، ذلك الإنسان الذي تصبح الفكرة همه: تقيمه وتقعده ويحلم بها في منامه وينطلق في سبيلها في يقظته.

وليس لدينا - بكل أسف- من هذا النوع القوي والعبقري، ولكن لدينا نفوسًا متأملة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد، ولا بد للنجاح من أن ينقلب هؤلاء إلى مثلٍ قوية تعي أمرها، وتكمل نقصها ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطار التي تتعاقب، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم، ومراقبة وعد الله ووعيده، والتأسي بسيرة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه.

وليس ما ذكر من نوع الفكرة التي يحلم بها الفرد في ساعات الراحة، وتذهب فيها أحلامه كل مذهب تلك هي أحلام اليقظة التي يعتبرها

علماء النفس متنفسًا للرغبات الدفينة، ونوعًا من التعويض عن تحقيق ما يرغب الفرد فيه، فإذا سيطرت هذه الأحلام على الفرد، وشغلت أكثر وقته كان ذلك انحرافًا عن الحال السوية، وتعود هذا الإنسان أن يلجأ إلى أحلامه كلما استعصت الأمور، ولعل أكثر مشروعات شبابنا من هذا النوع من الأحلام.

إن محمدًا ﷺ لم يعمد إلى إصلاح إقتصادي أو أخلاقي أو صحي أو سياسي أو إداري أو علمي، ولكنه عمد إلى إصلاح الإيمان، ودعا بدعوة التوحيد فكان من بعد ذلك كل إصلاح، وكل قوة وكل خير.

ولا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح عليه أولها. فرجل العقيدة السبيل الوحيد لعلاج أنواع الانحرافات التي سبق ذكرها جميعًا، ذلك أن رجل العقيدة سهم يندفع في تحقيق أهدافه، وهو إنسان ملأت نفسه عقيدته، فهو يعيش من أجلها ويرضى بكل أذى في سبيلها، ويبذل جهده وكل غالٍ ورخيصٍ، ورجل العقيدة أعظم ذخر نقدمه للعقيدة وأكبر رصيد نعده في سبيل نصرتها.

رجل العقيدة إن لم تكن لديه الوسائل الكاملة سعى في إيجادها، ولو كان أمرها مستحيلًا، فالوسيلة الفعالة القوية هي تكوين أمثال هؤلاء الرجال، والإصلاح الذي نرقبه لا يتم إلَّا في إيجاد أمثال هؤلاء.

صفات رجل العقيدة:

ولا بد لنا من وصف عاجل وتحديد مجمل لرجل العقيدة:

إن السلوك الأول الفطري الذي يأتي به المخلوق إلى هذه الدنيا، هو السلوك الغريزي، وهذا السلوك يظل لدى الإنسان فعَّالًا مؤثرًا حياة المرء

كلها.

يولد الطفل وبعد ساعات قليلة يسترجع وعيه، ويأخذ بالبحث عن ثدي أمه مصدر طعامه وشرابه، وتظل هذه الغريزة فعالة قوية لدى حياته كلها وبعد زمن يسير تبدو لدى الطفل غريزة الخوف، ثم غريزة الغضب، ثم غريزة الظهور والاستعلاء وما إلى ذلك.

ويسلك الطفل في سنيه الأولى مستجيبًا لغرائزه وحدها، فإذا نما قليلًا لم يعد يقبل منه ذلك السلوك الغريزي الذي كان يقبل أولًا، بل يؤخذ الطفل بالتربية والتهذيب فيعلم بأنه لا يحسن به أن يمد يده إلى الطعام كلما اشتهاه، وأنه ليس له أن يمد يده إلى كل ما يجتذب نظره، فإذا أطاع أثيب، وإذا عصا عوقب، وهكذا ينتقل الطفل فيجد نفسه أمام عامل آخر يدفعه إلى الفعل أو الترك، هذا العامل الثاني هو الثواب والعقاب وهكذا تعدل الغرائز، وتقوم بالثواب والعقاب، ثم يزداد نموه فيجد عاملًا جديدًا غير عامل الثواب والعقاب، وهو عامل الرضا والسخط، رضا الناس الذين حوله وسخطهم ورضا المجتمع الذي يعيش فيه وسخطه، ولهذا الدافع الجديد سلطان لا يقل عن سلطان الدافع الغريزي إن لم يكن أقوى منه، فنجد المجتمع يتحكم في سلوكنا وعاداتنا وأعمالنا وملبسنا ومطعمنا ومشربنا فيفرض علينا أمورًا ويحرم علينا أخرى سواء رضينا أم سخطنا، وكثير من الناس يحكمهم المجتمع طيلة عمرهم، وليس ما يسمى خوف العيب والعار إلَّا خوفًا من المجتمع.

• وفي مجتمع كمجتمعنا لا يليق بشخص محترم أن يحمل حاجاته إلى منزله مع أن ذلك مما يثاب المرء عليه، وفي مجتمع كمجتمعنا لا بد من

التبذير ولا بد من الترف، فالأرائك في المنزل لا يحسن أن تكون من خشب رخيص وفراش بسيط بل لا بد من المغالاة بأثمانها، وذلك محرم في عرف الشارع؛ لأنه تبذير للأموال ووضعها في غير موضعها، ولكن سخط المجتمع أكبر عند الناس من الحلال والحرام، وقد قال ﷺ: «**ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**».

ويتحكم المجتمع في الأزياء تحكُّمًا يقارب عبادة الوثن.

كثيرون أولئك الذين يعيشون من أجل رضا الناس وخوفًا من سخطهم لا يستطيعون التفلت من هذه القيود حياتهم كلها، وهذا المستوى يرتبط بالمستوى الغريزي الأول ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته يعيش مع الناس ويحرص على رضاهم.

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذا المستوى ويتخطوه إلى مستوى أعلى من مستوى العقيدة فيعيشون لعقيدة ويمضون في سلوكهم بما تملي به عليهم عقيدتهم سواء سخط الناس أم رضوا، وليس فوق هذا المستوى حين يندفع المرء بوحي عقيدته وإيمانه غير مبال برضا راض أو سخط ساخط، ليس فوق هذا المستوى مستوى أرفع منه.

ذكرنا بأن غرائز المرء لا بد من تعديلها، ولا يستطيع أفراد المجتمع أن يعيشوا عيشة راضية إذا كان الذي يحكم الأفراد هو غرائزهم، وتعديل الغرائز في التربية التقليدية يتم على الغالب عن طريق الثواب والعقاب، وبذلك يدع المرء دافعه الغريزي، ويكتبه طمعًا في ثواب أو خوفًا من عقاب أو رغبة في ثناء أو رهبة من هجاء، ولكن الغريزة في كل هذه الأحوال شديدة قوية فعالة مالكة إلَّا أنه قد حيل بينها وبين ما تشتهي

لوجود العقاب أو تعيير المجتمع وسخطه وعقابه، وقد يقع المرء في مثل هذه الحال فريسة لصراع الغريزة وغريزة الخوف من المجتمع، وقد ينوء هذا الإنسان الموزع بحمل العبء فتخور قواه وتنهار أعصابه.

إن خير وسيلة لتربية الغرائز وتعديلها تربية العقيدة تربية قوية. هنالك تظل الغريزة ولكنها تصبح مملوكة غير مالكة، تابعة غير متبوعة خادمة غير مخدومة، هنالك في ظل العقيدة المثلى يلين قياد الغرائز جميعها وتصبح كلها جنودًا طيعة للقيادة العليا، فغريزة الجمع لا تفقد قوتها ولا حدتها ولكن وجهتها بعد هيمنة العقيدة ليست إلى الترف والتفاخر والتكاثر بل إلى خدمة العقيدة؛ فالمال يجمع لينفق دفعة واحدة في سبيل العقيدة.

وكذلك الأبناء يحبون ما داموا عونًا على خدمة العقيدة ونصرتها، وكذا الإخوان وكذا الأهل والعشيرة.

والغضب لا تزول شرته ولكن تتغير أسبابه ودوافعه، أما دافعه الفطري فهو دفع اعتداء على مال أو جاه أو شيء يخص ذاتية الفرد، فإذا هيمنت العقيدة، وكان الاعتداء على واحد مما ذكر لم يبال الفرد ولم يغضب. نثر التراب على رأس محمد ﷺ، وكان ذلك من قِبَل سفيه من سفهاء قريش، فعاد ﷺ إلى منزله ولم تظلم الدنيا في عينيه ولم تكبر الفعلة الشنيعة في نظره؛ لأن كبرياء النفس قد زال في سبيل العقيدة واستبدل به عظمة الصبر والحلم في سبيل العقيدة، رجع الرسول إلى منزله بهدوء ووقار وأسرعت ابنته إليه تبكي وتغسل رأس أبيها، فيقول الرسول الكريم ﷺ: «**لا تبك يا بنية؛ فإن الله مانع أباك**».

* والخوف يزول لدى صاحب العقيدة، ولكن أسبابه ودوافعه الأولى لا تزول، لقد كان يخشى الظالم ويرهب الجائر فلما وجدت العقيدة لم يخش الظلم ولا الجور ولكن خشي السكوت عن الحق وخشي الجبن عن الصدع بالحق، وهكذا يخشى الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

إن حفنة يسيرة من رجال العقيدة يستطيعون أن يغيروا معالم التاريخ.

البيئة التي هي مظنة وجود رجل العقيدة:

أين تجد رجل العقيدة؟ وما المجال الذي هو مظنة رجل العقيدة؟ المجال الذي يجب أن نفكر فيه هو مجال المثقفين المؤمنين، هؤلاء وحدهم محط الأمل ومعقد الرجاء في تحقيق معاني الطليعة.

إن شروط الطليعة أقرب أن تتحقق في هؤلاء الذين جمعوا بين ثقافة العصر الحديث والإيمان بالدين الإسلامي، وإن كان ينقصهم زيادة معرفة بالدين وزيادة معرفة بالعلوم الحديثة، فإن عليهم أن يزدادوا علمًا بالموضوعين معًا.

هؤلاء هم أقدر الناس على دراسة الموقف ومعرفة النواقص التي تسربت إلى النفوس من آثار البيئة أو الاستعمار والصليبية، وهم أقدر على تخليص أنفسهم من هذه الآثار السيئة والانطلاق في سبيل الدعوة.

وهم أجدر بأن يقدموا للأمة المثل الصحيحة متحققة في سلوكهم،

وهم أجدر أيضًا بأن يكونوا في الطليعة ويجتذبوا الناس إلى المثل الصحيحة.

ومن العوامل التي تساعد على تكوين رجال العقيدة: الشعور بالخطر الذي ينتاب الأمة الإسلامية في كل قطر من أقطارها، وفي كل بلد من بلادها ويلي ذلك الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى.

من يشعر بالخطر..؟

لا يستطيع الشعور بالخطر كل إنسان، ذلك أن دهماء الناس لا يستطيعون أن ينفذوا ببصائرهم إلى ما بعد الحاضر القريب الذي يحيط بهم مثل هؤلاء تليهم مشاغلهم القائمة عن النظر في أي أمر، ولا تستطيع أبصارهم أن تتجاوز أنوفهم، هؤلاء أنفسهم إذا دقت ساعة الخطر فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم فهلعت نفوسهم وانخلعت أفئدتهم من شدة الهول وهؤلاء هم الذين أتى القرآن الكريم على ذكرهم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

* وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف].

* وقد صرحت الآيات الكريمة بأن أخذهم بغتة كان السبب فيه أنفسهم؛ لأنهم غفلوا وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، هؤلاء الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج]. فالمصلون لا يؤخذون بغتة ولا يهلعون ولا يجزعون؛ لأنهم يرقبون أمر الله.

مات ولد لعمر بن عبد العزيز فلم يجزع عليه فقيل: إنك لم تجزع. فقال

ما معناه: «كنت أقدر أنه قد يموت في كل حين، فلما وقع الموت لم أجزع».

* يظن الناس أن النعمة لن تفارقهم، وأنهم خالدون في مساكنهم وما أترفوا فيه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يخلصوا من مشاغل الساعة لينظروا إلى مكانهم الذي هم فيه، والكثيرون لا يستطيعون ذلك؛ لأن صفتهم صفة الطفولة اللاهية التي لا تعرف الاعتبار ولا تستطيع النظر فيما سبق وأكبر من ذلك أن تستطيع أن تنفذ ببصرها إلى بعيد، أو أن ترى الأشياء قبل وقوعها.

ومن المؤسف جدًّا أن تفقد الأمة الأفراد الذين ينظرون إلى بعيد ويضعون الأمور موضعها، ولذلك نجد أنفسنا تفجأ في كل حين بالأمر الداهم ولم نعد له عدته.

الشعور بالخطر يرتبط بإدراك وطأة الماضي والإحاطة بالموقف الحاضر والنظر إلى المستقبل، وكل ذلك لا يطيقه إلَّا نافذ البصيرة.

ويتفاوت الشعور بالخطر بتفاوت الأشخاص فمنهم من لا يشعر بالخطر أي شعور ومنهم من يطغى عليه هذا الشعور حتى يصبح حالة مرضية يؤدي بصاحبه إلى اليأس ويشل حركته ويحول بينه وبين العمل. وهنالك شعور بالخطر مقترن بالأمل مشفوع بأمضى أنواع العزيمة وأنفذ ألوان البصيرة، والمثل الكامل لذلك محمد ﷺ الذي جاء في «الصحيح» عنه أنه كان يقول: «**أنا النذير العريان، النجاء النجاء**».

وهنالك من لا يشعر بالخطر الشعور الذي يوازي الخطر بل يشعر

شعورًا أقل من الشعور الواجب، وهذه هي حالة شبابنا الواعين.

والاندفاع في سبيل الإنقاذ يوازي الشعور بالخطر، أو هو أقل منه وذلك إذا كان الفرد واعيًا معتدلًا غير مغلوب على أمره.

□ يقول مالك بن نبي في كتابه «تأملات في المجتمع العربي»: «يمكن أن نعتبر الصعوبات من ناحية أوضح دليل على النهضة واليقظة.. ونقول مع توينبي: «إن الصعوبات هي تحدٍّ خلاق؛ لأنه يستحث الرد عليه». ولا يشك أن الرد لا يمكن أن يكون بغير الكد والتفكير».

فمن العوامل الدافعة لتكوين رجل العقيدة الشعور بالخطر لدى شباب الأمة الإسلامية في كل قطر من أقطارها ويلي ذلك الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى والخلاص من الخطرين سبيله واحدة هي حمل المسلم رسالته إلى إخوانه المسلمين وإلى العالم كله»[1].

ولا بد لرجل العقيدة من أن يشعر أنه ولد ولادة جديدة، وأن هنالك انقطاعًا بين حياته الماضية وحياته الحاضرة، لقد آمن أصحاب رسول الله ﷺ فانقطعت صلتهم بماضيهم وبمجتمعهم الجاهلي ولدوا ولادة جديدة ووصلوا حبالهم بحبال مجتمع جديد.

هذا الشعور خير معوان على كسر الأطواق والتخلُّص منها إلى غير رجعة وهو خير معوان على الاندفاع في سبيل العقيدة.

---

(١) «المسؤولية» (ص٣٨- ٤٧).

العوامل التي تُساعِد على تكوين رجلِ العقيدة:

أولا: الشعور بالخطر الخارجي:

١ - الصهيونية.

٢ - الصليبية.

٣ - مخططات الاستعمار.

ثانيًا: الشعور بالخطر الداخلي في المجتمع:

٤ - دراسة التاريخ تكشف عن عوامل الانحراف.

٥ - دراسة الحركات الإصلاحية والعقبات التي قامت في وجهها.

٦ - كشف مخططات الأعداء في الداخل.

٧ - الغزو الفكري الغربي.

ثالثًا: العامل الداخلي المتعلق بالأفراد:

٨ - السطحية بما يتبعها.

٩ - الفردية والأثرة وضعف روح التعاون.

١٠ - روح الترددُّدِ والحذر والجبن وعدم الإقدام.

١١ - فقدان روح المغامرة والدافع للعمل.

رابعًا: دواعي الخير والاستجابة لنداء الواجب:

أ- التربية الفكرية:

١٢ - التأسي برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم «دراسة السيرة».

ب- التربية الوجدانية:

١٣ - الإصاخة لنداءات القرآن الكريم.

١٤- العبادة خير وسيلة للتربية.

١٥- الجماعة فرض.

١٦- الدعوة تزيد الإيمان.

جـ- التربية العملية:

١٧- الولادة الجديدة.

□ قال الشيخ الدكتور محمد أمين المصري شارحًا هذه العوامل: «وللتبصير بسبيل الخلاص لا بد من تحليل العوامل الداخلية والخارجية، ونعني بالعوامل الخارجية: المخططات التي يرسمها أعداء هذه الأمة منذ دهور طويلة، وما يزالون يمكرون ويكيدون ويرقبون نتائج أعمالهم السيئة بدقة وحذر.

هذه الأخطار الخارجية ليست قليلة الأهمية، وليس من اليسير على المسلمين اليوم تتبعها واكتشافها، ومن المؤسف أن المسلمين في هذا الشأن عالة على الغربيين ينتظرون ما يتسرب إليهم، منهم من نصوص تظهر أغراض هؤلاء ونواياهم، وشيئًا من مخططاتهم.

ومما يجب ألا يغيب عن الذهن المؤسسات العالمية التي تشترك فيها أكثر الأمم الإسلامية، تلك المؤسسات التي تجمع إحصاءات عن كل ما يتصل بالتربية لدى المسلمين، بواسطة الوسائل الدقيقة التي لديها، وهذه المؤسسات بتتبعاتها ونشراتها وخبرائها جديرة بالدراسة.

والمدارس التبشيرية واستقلالها في البلاد الإسلامية، وصلاتها بمؤسساتها الأجنبية حتى لكأنها حكومة ضمن حكومة والقائمون عليها الذين هم من مخلفات الحملات الصليبية جديرة أيضًا بأن يستيقظ لها

المسلمون ويخشوا شرها.

ووسائل هؤلاء لا تعد ولا تحصى، تمثل كلها تسلط الماكر الغادر اللئيم على إنسان ساذج بسيط. ألفت وزارة الخارجية في دولة غربية لجنة عالمية من الاختصاصيين، وكانت مهمة هذه اللجنة دراسة العالم العربي، وبصورة خاصة النزاع العربي الإسرائيلي، وتحديد المشاكل والصعوبات وتربيتها تبعًا لأهميتها، ثم البحث عن حلول، سواء كانت ذات نوازع قانونية رشيدة أو لم تكن كذلك.

وتقول هذه الوزارة: لقد كنا في حاجة إلى قائد عربي تتجمع بين يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لأي زعيم عربي من قبل.. سلطات تمكنه من اتخاذ قرار سواء رضي به الشعب أم لم يرضى. والرجل الوحيد الذي يستطيع الحصول على مثل هذه السلطة هو الشخص الذي يتطلع بشوق إليها..

٥- دراسة البيئة والمقدرة التأثيرية فيها:

ومن سبل الخلاص أيضًا: دراسة البيئة التي نعيش في أخطائها وانحرافاتها، ولا بد أيضًا من دراسة أحوال المصلحين وخطتهم في الإصلاح في الأمة، ودراسة العقبات التي قامت في وجههم. ومن ذلك حال عامة المسلمين على مر العصور من حب الدنيا وكراهية للموت وميل إلى الترف والدعة، وأكبر من كل هذا أهمية اختلاف وجهات المسلمين وضعف إدراكهم حقائق الأمور كما بيَّنا.

وهذا لا بد أيضًا من دراسة التاريخ الإسلامي، والوقوف على ما اعترى المسامين حكامهم وعلماءهم وعامتهم خلال فترات التاريخ من

انحراف عن المعاني الصحيحة التي جاء بها محمد ﷺ، ونتائج هذا كله في عودتهم إلى جاهليتهم.

ولا بدَّ أيضًا من دراسة الحركات الإصلاحية منذ حقب طويلة من الزمن، ودراسة أسباب إخفاقها وتتبع هذه الحركات واحدة بعد واحدة، وبيان مدى النجاح الذي انتهت إليه أو الإخفاق الذي منيت به والدائرة المحدودة التي استطاعت العمل فيها. ولنلاحظ أن دراسة هذه الموضوعات يحتاج إلى زمن ليس باليسير، وليس معنى دراستها التوقف حتى نحصل على نتائج هذه الدراسة. إن مجالات العمل واسعة ويجب المضي فيها ونحن عالمون بثقل المهمة.

ومن النواحي الهامة التي يحسن أن يلاحظها الشاب المندفع في سبيل الإيمان أن الفكرة لها تأثير مختلف في النفوس، فهنالك فكرة تؤرق صاحبها وتسهده وتحمل صاحبها على التفكير في الأمور وبدء النظر فيها وإعادته، وهذه الفكرة قد تبلغ أعماق النفس، وقد تخالط شغاف القلب، وتصبح هم الفرد وشغله ويقال حينئذٍ: إن الفكرة مازجت أزاء النفس وتفاعلت وإياها تفاعلًا تامًّا، فهي فكرة فعالة قوية تحمل صاحبها على المضي. وهنالك فكرة خامدة لا تفعل في النفس، ولا تؤثر فيها ويمكن أن يقال: إنها أضيفت إلى عقل الإنسان إضافة وحملت فيه حملًا قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥].

الفكرة الأولى تحدث في النفس انفعالات شتى من الخوف والقلق على ضياع الفكرة، ثم الشجاعة الإقدام في سبيلها، ولا تكون كذلك إلَّا إذا

اتصلت بحاجات النفس العميقة وأغراضها البعيدة، وأهداف الإنسان الحيوية الهامة، وبذلك تصبح شديدة اللصوق به بل تصبح جزءًا من النفس.

ومثل هذه الفكرة إما أن يكتشفها الإنسان فتصبح جزءًا منه، وإما أن تلقي إليه فيشعر بأنه وجد فيها ضالته وأن بينه وبينها صلة عميقة ونسبًا قريبًا.

وهكذا تلقى الفكرة في نفس فتتلقاها تربتها مبتهجة بها أو تعارضها وتنبذها لعدم وجود التجانس معها، وهكذا كان القرشيون في مستوى لا يسمح لهم بإدراك دعوة محمد ﷺ. والذي يصرف الفرد عن الفكرة ويحرمه استعداد تقبلها مستواه الفكري أو مستواه الخلقي والأهواء المسيطرة والنزعات التي تعمي عن رؤية الحق، ويضاف إلى كل ذلك المشاغل التي تصرف عن تقدير الفكرة وتشغل الفرد عن وعيها.

وتنطبق في مجتمعنا هذه المعاني كلها، فالفكرة الإسلامية لا تدرك إدراكًا صحيحًا، وأن أماثلنا قد استنفذت جهودهم الدنيا وانحطت همتهم وتدنت مستوياتهم الفكرية والخلقية والإرادية عن مستوى الفكرة الإسلامية، يقول رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي**

أرسلت به».

والمؤسف أن المسلمين يحملون معاني لا تتفاعل ونفوسهم أي تفاعل، ولكنها تكسبهم غرورًا، فهم يستطيعون التحدث في كل معنى ويفيضون في كل حديث يدعو إلى خير ويشيد بمكرمة، ولكنهم يعرفون ذلك معرفة كلامية يتبجح بها صاحبها، ولقد كان الجهل خيرًا من هذه المعرفة.

هؤلاء الذين يتأثرون بفكرة الحق ويناضلون في سبيلها لا بد أن يسبق بلوغهم هذه المرحلة مرحلة أخرى هي التعطش إلى معرفة الحقيقة، والبحث عنها وتتسم هذه المرحلة بالسمات التالية:

١- شوق إلى معرفة الحقيقة وتعطش إلى الوصول إليها، وإخلاص لها وبذل الوسع في سبيل بلوغها.

٢- إيثار للحقيقة على كل ما عداها.

٣- تيقظ كامل لما يضع الناس من عقبات في سبيل سدل الستار على الحقيقة، وإخفائها عن أعين الناس.

٦- الجماعة:

ولا يتم شيء من المعاني التي ذكرت إلَّا ضمن الجماعة، ولذا كان وجود الفرد في الجماعة أمرًا ضروريًّا دينيًّا. يروي الترمذي في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد، ومن خرج من الجماعة فكأنما نزع ربقة الإسلام من عنقه**».

إن معنى الأخوة ومعنى التعاون لا يتحققان إلَّا وسط الجماعة والجماعة خير عون للفرد، تذكره إذا نسي وتوقظه إذا غفل وتدفعه إذا أبطأ.

ولا يتم معنى الجماعة إلَّا إذا شعر الفرد بالاعتزاز بانتمائه إليها والطمأنينة في وجوده فيها، وأنها حققت أمانيه، وأنه إلى جانب ذلك خلية في الجماعة يمدها ويستمد منها، وأنه لبنة أساسية في بنائها، خلية إذا انفصلت عن جسمها عدمت، وإذا ظلت متصلة به تستمد الحياة، والجسم تتكامل وظائفه بشتى خلاياه ويضيره أن يفقد واحدة منها [1].

لا.. لا للرجل الصِّفر دنئ الهمّة:

□ لا للخامل الكسلان.

• قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل**»[2].

□ لا للراضي بالدون مع قدرته على ما هو أحسن وأفضل.

□ لا للمتقيد بنمط هامد في الحياة ولا يتطلع إلى أُفق جديد..

لعمرك ما الرَّزيَّة فقدُ مالٍ ... ولا شاة تموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرَّزيّة فَقْدُ فَذٍّ ... يموت بموتِهِ خَلْقٌ كثيرُ

□ ولله درُّ إبراهيم بن أَدهم وهو يردِّد هذه الأبيات الطَّيِّبة:

إذا ما مات ذو عِلْمٍ وتقوى ... فقد ثُلِمَتْ من الإسلام ثلمةْ
فموت الحاكم العدل المولى ... بحكم الأرض منقصة ونقمةْ
وموت فتى كثير الجود نحل ... فإن بقاءه خصب ونعمةْ

(١) «المسؤولية» (ص٤٩- ٥٤).
(٢) رواه البخاري (٨٣٢، ٢٨٩٣، ٦٣٦٩)، ومسلم (٤٩) من حديث أنس بن مالك.

ومـوت العابـد القـوَّام ليـل ينـاجي ربـه في كـل ظلمـةْ
ومـوت الفـارس الـضِّرغام هـدمٌ ولا تـشهد لـه بـالنقص عزمـةْ
فحـسبك خمـسة يبكـي علـيهم وبـاقي النـاس تخفيـفٌ ورحمـةْ
وبـاقي الخلـق هـم همـجٌ رعـاعٌ وفي إيجـادهم لله حكمـة

أترضى أن تكون من التخفيف والرحمة»[1].

☐ لا للرجل الصفر المستجيب للنفس الأمَّارة، المُضيِّع لأوقاته.

☐ لا للرجل الصفر غير المستعد للإلتزام بشيء..

ولم أجـد الإنـسان إلَّا ابـن سـعيه فمنْ كان أسعى كان بالخير أجـدر
وبالهمَّـة العليـاءِ ترقَـى إلى العُـلَا فمن كـان أعـلى همَّـة كـان أظهـرا
ولم يتـأخر مـن أراد تقـدُّما ولم يتقـدمْ مَـن أَراد تـأَخُّرَا

☐ لا للرجل الصفر المعطل لعقله.. الهامد أمام عقدة «المستحيل» وعدم الاستطاعة والقُدرة..

قمْ رابطَ الجأْشِ وارفعْ رايةَ الأمَلِ وسِرْ إلى الله في جِـدٍّ بـلا هَـزَلِ
وإنْ شعرتَ بـنقصٍ فيـك تعرِفُـهُ فغَـذِّ روحَـكِ بـالقرآن واكتمـل
وحارب النفس وامنعهـا غوايتهـا فالنفس تَهْوي الذي يدعو إلى الزَّلل

☐ ولا للرجل الصفر المُثبِّط للآخرين الذي يزرع اليأس في الآخرين..

واحمل بعزم الصدق حملـة مُخْلِصٍ متجَـرِّدٍ لله غـير جبـان

---

(١) «الرجل الصفر» للشيخ إبراهيم الدويش (ص١٤) طبع مكتبة أبي حذيفة السلفية.

واثبت بصبرك تحت ألوية الهُدَى ... فإذا أصبتَ ففي رضا الرحمنِ
والحق منصورٌ وممتَحَنٌ فلا ... تعجَبْ فهذي سُنَّةُ الرحمنِ
لكنما العُقْبى لأهل الحق إنْ ... فاتتْ هنا كانت لدَى الديَّان

□ لا للرجل الصفر المتردِّد الحيران المرتاب..

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأي أن تتردَّدا

المعيارُ الحقيقيُ للجَدِّ في حمل المسؤولية وعلو الهمَّة فيها الشغل كل الشغل والهم كل الهم بقضية القدس وفلسطين:

كيف ننام وما نامت جراح بيت المقدس، والمسجد الأقصى جرحه فوّار هل حملتَ همَّ الأقصى والإسلام.

المسجد الأقصى هو المركز في قصة صراع الحق والباطل بين أتباع الديانات الثلاث؛ ولذلك فمنه ابتدئ سرد ثوابتنا الإسلامية؛ التي يُراد التصدي لها، أو القفز من فوقها إلى حيث ثوابت المغضوب عليهم والضالين، ومن دار في فلكهم من المنافقين:

□ المسجد الأقصى ليس مجرد مسجد يمكن استبداله، أو التفريط فيه؛ فهو يرمز إلى المعتقد الحق، الذي جاء به رسول الحق ﷺ، ناسخًا الشرائع السابقة؛ ولذا فإن التفريط فيه تفريط في العقيدة والشريعة معًا.

□ الأرض المباركة حول المسجد الأقصى، قُدست لارتباطها بقدسية الرسالات السماوية التي ختُمت برسالة خاتم الأنبياء ﷺ - كما دلت حادثة الإسراء، والاعتراف بحق اليهود في الوجود فيها كدولة، هو خيانة لله وللرسول ﷺ وللمسلمين.

□ هذه الأرض فتحها المسلمون الأوائل من الصحابة ومن تبعهم؛ فلكل المسلمين فيها حقوق وعليهم واجبات؛ لأنها وَقْفٌ عليهم جميعًا، ولهذا لا يحق لكائن من كان أن ينفرد بتقرير مصيرها لغير صالح الإسلام والمسلمين؛ لأن نُصرتها أمانة في أعناقهم جميعًا بأرضها وشعبها ومقدساتها ومجاهديها ومرابطيها وأسراها وجرحاها.

□ قضايا المسلمين الكبرى – كقضية فلسطين- لا بد أن يُرَدَّ الفصل فيها لأهل الحل والعقد من المسلمين، الذين يمثلهم في الأساس أهل العلم والفقه على مستوى العالم الإسلامي، أما الساسة والمتنفذون؛ فما عليهم إلَّا التنفيذ في حال القدرة والاستطاعة، إذا كانوا حقًّا مخلصين للأمة.

□ اليهود كانوا – وسيظلون للأبد- أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ويدخل في حكمهم من شايعهم من النصارى وغيرهم، ولهذا فإن دعوى «السلام الدائم والعادل» معهم، افتراء على الحق، وتضييع للحقيقة؛ لأن عداوتهم زادت وتضاعفت باغتصابهم لحقوق المسلمين وأراضيهم، وجهاد هؤلاء لا يمكن القول بإبطاله أو تأجيله عن وقته، فضلًا عن القول بنبذه والتبرؤ منه؛ لأنه شرعة واجبة إما عينيًّا أو كِفائيًّا، وبخاصة في أرض فلسطين.

□ الشريعة الإسلامية – لا النظم العلمانية- ستظل مرجع الحاكمية الواجبة في فلسطين وغيرها؛ فالتحاكم إليها واجب حتى عند عدم القدرة على تنفيذها، والعجز عن الحكم بها لا يسوِّغ التحاكم أو الرضى بغيرها، فضلًا عن السعي لتمكين غيرها للحكم في رقاب المسلمين ودمائهم

وأعراضهم وسائر شؤونهم.

□ أرض فلسطين وسائر بلاد الشام، فتحها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين أحلوا فيها نهج الحق والسُّنَّة، فيجب تعظيم قدرهم فيها، وتعظيم المنهج الذي أحلُّوه فيها، دون فتح المجال لإجلال وتمكين البدعة وأهلها فيها من أعداء الصحابة وأعداء منهجهم الحق، كما حدث ذلك فيما جاور فلسطين من بلاد الشام.

□ كما ظلت القومية والوطنية العلمانية، وكذلك الثورية والليبرالية، تمثل خطرًا على مسار القضية الفلسطينية من الخارج؛ فإن التقيد بالحزبية أو القطرية أو المجاملات الرسمية، يمكن أن يؤخر مسار التقدم باتجاه هذه القضية المركزية عند كل المسلمين.

أعرف أن هناك من سيقول: أين نحن مما تتحدثون عنه، في زمن هوان المسلمين، وظروف تمكن الأعداء، ومناخ المعادلات الدولية والنظرات الواقعية لموازين القوى المؤثرة في طبائع الأحداث؟! فأقول: الواقع ليس حُكمًا على الشريعة والعقيدة، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية: فإن هذا الواقع يتغير بسرعة لصالحنا كلما غيَّرنا ما بأنفسنا، كما تشهد بذلك ساحات الانتصارات الأخرى. ومن ناحية ثالثة: فإن في مقابل تلك الثوابت الإسلامية، هناك ثوابت «دينية» صهيونية، نصرانية تقابل كل بند فيها، ولعلِّي أترك للقارئ إجراء تلك القابلة والمقارنة، التي لم تحجزهم عنها أوهام الواقعية أو العصرانية.

ومن جهة رابعة: فإن الأجيال الإسلامية، لا بد أن تنشأ على المفاهيم والثوابت الإسلامية في قضاياها، حتى إذا عجزنا نحن، لم نورِّثهم ذلك

العجز، أو نسلِّمهم لمسلَّمات وثوابت المبطلين، من العلمانيين وأشياعهم.

إن العلمانية العربية هي أكثر الأطراف حديثًا عن «الثوابت»، ولكنها ثوابت تختلف عن ثوابتنا الإسلامية؛ ومع هذا فإنها كانت ولا تزال الأكثر تفريطًا فيها وتجاوزًا لها.

• إن فلسطين في حاجة إلى مزيد من التشبث بتحرير الولاء لله، لتحرير المقدسات والأراضي والمقدرات من أعداء الله، وهذا ما سوف يحدث قطعًا، عندما تكون الرايةُ الإسلام، والغايةُ العبوديةَ؛ فبهذين الوصفين، سيلتفت العرب وسيتضامن المسلمون، بل سينطق الحجر والشجر لنصرة المظلومين ضد اليهود الظالمين، مصداقًا لقول النبي ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله! إلَّا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»**(١).

فالنداء هنا بوصف الإسلام ووصف العبودية وليس بالقومية أو الوطنية العلمانية التي أضاعت الأرض والعرض في فلسطين لنحو تسعين عامًا» اهـ.

✍ اللهم ارزقنا أفضل الشهادة في سبيلك.

صرخة الأقصى(٢) **:**

□ ربط القرآن بين البيت والأقصى رباطًا أبديًّا

لم يكن ربط مناخ بمناخ.. بل رباطًا عقديًّا

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) للدكتور عبد الغني التميمي – مجلة البيان العدد (٢٣٥) (ص٦٠ – ٦١).

لم يكن ذاك خيارًا أو قرارًا عربيًّا
أو شعارًا مستعارًا ثانويًّا
كل من فرَّق بين البيت والأقصى فقد
كذَّب القرآن أو خان النبيّا

❊❊❊

□ يا أخي المسلم، هذا المسجد الأقصى الجريحْ
في سكون الليل لو يُسمع كالطفل يصيحْ
جرحه الغائر لا تشبهه كل الجروحْ
إنه جرح أليم داخل القلب يقيحْ
مزقته آلة المحتلِّ بالحفر المذلِّ المستبيحْ
إنهم أعداء إبراهيم من قبلُ وموسى والمسيحْ

❊❊❊

□ أمة التوحيد يا مستقْبَلي الآتي ويا يومي وأمسي:
كيف أصبحت جموعًا بين عميانٍ وطرشان وخُرْسِ
ما لديها غير شكوى، وجعجعاتٌ دونها طِحْنٍ، وهمسِ
لست أدعوكم لعجز أو لإحباطٍ ويأسِ
أو لترثوا بدموع منتهى ذُلِّي وبؤسي
إنني أصرخ والهيكل يُبنى فوق رأسي:
قطَّع الحفرُ شراييني وأنفاسي وحسِّي
أترجَّى منكم النخوة في حرقي وطمسي
أم تُرى أنعى لكم نفسي بنفسي؟!

ربما أصبح؛ لكن رغم أنفي لست أمسي
أرسل الأقصى خطابًا فيه لومٌ واشتياقْ

❊❊❊

□ قال لي وهو يعاني من هوانٍ لا يُطاقْ:
بلِّغ الأمة أني عِيل صبري بين حفر واحتراقْ
هتك العهر اليهودي خشوعي من رُواق لرواقْ
أشعلوا أرضي وساحاتي فجورا
وصفيرًا وسفورا!
دنّسوا ركني ومحرابي الطهورا
فأنا اليوم أعاني بل أعاني منذ دهرٍ
ألم القهر أسيرا
لم يزل قيدي مشدود الوثَاقْ
لم تفدني الخطب الجوفاء شيئًا
أو شعارات الرِّفاقْ
أو ما يكفي نفاقًا؟ ضقت من هذا النفاقْ
أرسلوا من صلاح الدين خيلًا
أرسلوها من حمى الشام ونجد
من سرايا جيش مصر، وصناديد العراقْ
من ثرى المغرب والمشرق للمجد تساقْ
تنشر الهيبة للإسلام بالدَّم المراقْ

منذ هرٍ لم تزرني هذه الخيل العتاقْ

꧁꧂

□ قال لي الأقصى: سلامًا من مقامي

بلغ الأمة -- بالله- سلامي

من معاني سورة الإسراءِ، قُدسيّ الهيامِ

سلفي الوجد سني العناقْ

لا سلامًا خائن النشأة عبريّ المذاقْ

قل لهم: يا أهلُ، قد طالَ الفراق

وأنا أُشوى على جمر المشاق

أأنا أغدو مكانًا أثريًا بصنوف الحفر ضاق؟!

أأنا أنضم للحمراء من أندلسٍ

وأعيش الذل في ذات السياقْ؟!

وأعيش الأمل المقتول في ذاك النِّطاقْ؟

يا بني الإسلام! ما حلَّ بكم؟!

هل نسيتم أنني بوابة السبع الطِّباقْ؟

من رحابي وَاصَلَ الرحلةَ في الكون البُراقْ

꧁꧂

□ صرخ الأقصى حزينًا خافض الرأس بئيسًا:

هل أقضي العمر -كالسارق- في السجن حبيسًا؟

ضقت من صحبة قوم أضجروا من قبلُ موسى

صادروا كل دروس العلم في ظلِّي.. فمن يُحيي الدروسا؟

سرقوا قرآن فجري ومَحوا أول صفِّي
مزَّقت آلاتهم بالحفر أحشائي وجوفي
وأشاعوا أن موتي حتف أنفي
هذه الأنفاق تحتي تزرع الأرض كهوفا
كهل كهف فاغرٌ فاه لكهف
فمتى يَبْلغُ عني لبني الإسَلام في العالم خوفي؟
أم تراهم يرقبون اليوم ميعادًا لنسفي؟!
هل يغارون إذا أضحيت كالأطلال مهجورًا دريسا،
وإذا بُدِّلت للتهويد بوقًا وطقوسًا؟
أئذا أصبح محرابي يومًا ومصلَّاي كنيسا؟!

◻ وأخيرًا صرخ الأقصى يقول:
فهِّموني كيف أهوى طاعني في مقتلي؟
كيف أهديه دمي مع قُبَلي!
وأحيِّي سارقي، بل أدَّعي أن ما يسرق مني ليس لي؟!
لغة للذلّ لا أفهمها كدت أنهارُ لها من خجلي!

◻ آه ما آلم جرح الكبرياءْ!
آهٍ ما أوجع مكتوم البكاءْ!
حينما نُطعَن في عزَّتنا
حينما نبكي كما تبكي ضعيفات النساءْ

نحن لا نملك من نخوتنا
غير صرخات وشجب ودعاءْ
حرَّم السيَّف علينا الزعماءْ
هل ترى فرقًا كبيرًا بيننا اليوم
وما بين الجواري والإماءْ؟!
كلنا في ساحة العجز سواءْ



□ كانت الحرب شعارًا
وجهاد المعتدي كان فخارًا
ثم أضحت لغة الحرب فرارًا
وغدا التفكير بالحرب أو
النطق بذكر الحرب عارا!
سُحِب الجندي من عز الصناديد الغيارى
وغدَا حارس رملٍ وصحارى
آلة يزجي التحيات لأنذال يهود أو نصارى
وترى الناس سكارى
من رضا الذلِّ وما هم بسكارى!



□ اعذرونا إن صرخنا
إن في أعماقنا الموت الزؤامْ
لا نظنُّ الصارخ المذبوح – إن صاح – يلامْ

اعذرونا إن فتحنا مرةً أفواهنا
أنتَنَتْ ألفاظنا في الحلق من شدِّ اللثامْ
كلمَة المعروف شاخت وهي تحيا في الظلامْ
أهَوْ ظلم أن يقال الحق جهرًا، أهو عيب واختراق للنظام؟!
قبَّح الله لسانًا يألف الصمت الحرام!

أتحمل هَمَّ الإسلام وتنام.. ماذا قدَّمت لدين الله وأنت هامد جامد:

إن جراح المسلمين في كل شبر في العالم، ونجيع الدم الفوَّار للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان في العراق والفلبين وكشمير وأفغانستان يصنع الرجال.. ويوقظ الهمم.

إن الصِّدِّيق رضي الله عنه ما رضى حين أسلم أن يكون هامدًا، بل على الفور قام ودعا إلى الله فأسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة في ميزان حسناته يوم القيامة.. فماذا وضعتَ في ميزان حسناتك؟ وماذا أنت واضع؟! هل أنت قائل لمآسي المسلمين، وبكاء اليتامى وأنين المستضعفين وأنات الشيوخ وصرخات النساء «أنا لها» «واإسلاماه واإسلاماه».

ألا توقظك جرأة العلمانيين واليهود والنصارى وتطاولهم على أعظم الثوابت على رسولك صلى الله عليه وسلم وعلى الإسلام:

في زمن تنطق فيه الرُّويبضة [1]، ويعلو التحوت الوعول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة**

---

(١) الرُّويبضة: تصغير الراضة: وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها وهو التافه الخسيس.

يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيْبِضة» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**السفيه يتكلم في أمر العامة**»[(١)].

حينئذٍ تتحول الحياة إلى مستنقع آسنٍ، وترتكس الدجاجلة من العلمانيين ومعهم الغوغاء في الحمأة الوبيئة، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم ويعلو أهل الله بمرتعهم الذكي، ومرتقاهم العالي، ونورهم الوضيء، وعلى الطرف الآخر شياطين العلمانية اللئام، فسدت بهم الأرض وأسنت الحياة، وتعفنت الوديان بأهل الحداثة التنويرين الإرهابيين التقدميين قادة الفكر العلماني المتعفن الظلامي الذين تطاولوا على الله وسخروا من دينه، وأنكروا وتنكروا لكل معلوم من الدين بالضرورة، وحاولوا هدم السنة، ولمزوا رسول الله ﷺ وتنقّصوا قدره تعريضًا وتلميحًا بل وتصريحًا، وسودوا الصحائف والكتب في ذلك..

يرمــرم في فتــات الكفــر قوتًــا ... ويــشرب مــن كؤوســهم الثمالــةْ

يُقبــل راحــة الإفــرنج دومًــا ... ويلــثمُ دونــها خجــل فِعالــه

□ مسخوا عقل الأمة وضميرها وفكرها ويومها وأرادوا مستقبلها، وأضاعوا شباب الأمة في التيه الكبير.. وتطاول كل ظلامي علماني نابح ناعق.. تطاول على ثوابت الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة].

• **فضحهم** حديث رسول الله ﷺ الذين لا ينطق عن الهوى: فعن

(١) إسناده جيد: رواه أحمد في «مسنده»، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ٣٧- ٣٨): **إسناده حسن ومتنه صحيح**، وقال ابن كثير: إسناده جيد.

عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتراب الساعة**»، وفي رواية: «**من أشراط الساعة**»[١]، أن تُرفعَ الأشرارُ، وتُوضعَ الأخيارُ، ويُفتحَ القولُ، ويُخزنَ العَمَلُ، ويقرأ القوم بالمثناة «ويُقرأ في القوم بالمثناة» ليس فيهم أحدٌ ينكرها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استُكْتِب سوى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ».. وكم للعلمانيين من مثناة ومثناةٍ ومثناة!.

□ أيها الزبد النافش المنتفخ الغثاء.. أنتم باطل يطفو ويعلو وينتفخ ولكنه جفاء مطروح ينزوي ويغور، يضيع ويموت.

□ يا أمثال الذر اخسئوا فلن تعدو قدركم، يا من تزدحم أنفسكم باللدد والخصومة لله ورسوله وشرعه، مهما اتقنتم الدجل والكذب والتمويه والدهان إن الله سيفتح نيَّاتكم وسيراها الناس في محياكم ووجوهكم.. لن تخدعوا الناس بعد اليوم بزلاقة ألسنتكم، ونعومة الدهان..

□ كلكم هش.. كل منكم سريع العطب مهما حاول أن يُموّه على العين أنت أشقى من على الأرض ومعكم ساداتكم من اليهود والصليبيين أنتم زيف.. إلى مزابل التاريخ.. ويبقى الإسلام ورسوله.. يبقى الرسول ﷺ شامخًا، نورًا نيرًا، وسيدًا، نبراسًا، مباركًا، صلحت به الحياة وبدينه.

✍ كلمة أخيرة أقولها لبعض إخواننا من الدعاة الذي يقولون لماذا

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ٥٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٥٩٣)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٢٦)، وقال: رواه الطبراني ورجال رجال الصحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٢١)، وذكره الدارمي في «سننه» موقوفًا (ح رقم ٤٩٣)، وقال الشيخ حسين الداراني: إسناده جيد.

نردّ على كل متطاول وهم كثر، وما جدوى الرد والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥] أقول لواجب بالأمر والنهي عن المنكر، ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف].

✍ وحتى يفكر كل قزم آلاف المرات قبل أن ينطق ببنت شفة حين يرى دنيا المسلمين قد قاموا ونكَّلوا بمن سبقه.

✍ وحتى لا تتفشى الدرَّه في المجتمع ويهون على الناس أن يرتدوا بتطاولهم على رسول الله ﷺ.

✍ وحتى لا يتفشى القول المنكر القبيح من اليهود والنصارى.. الدانمارك وغيرهم.. ليجاريهم أناس من جلدتنا.. دعاة على أبواب جهنم.. وتأخذ النسوة نصيبها من الردة حين يجبن الرجال.. وهذا ما ظهر أخيرًا من التي لاكت عرض رسول الله ﷺ وعائشة أم المؤمنين ﵂.. وقالت مقالة الرِّدة.. وفي هذه الجعلانة، قال ابن أمي لله دره حماه الله ورعاه الرائعة التي أختم بها هذا الفصل.

❁❁❁

علو الهمة في تحمل المسؤولية.. والفاعلية

تَبَّتْ يدَاكِ

إِلَيْهَا تِلْكَ الجُعْلَانَةِ التي عَابَتْ أَطْهَرَ الخَلْقِ وأَشْرَفَ الرُّسُل ﷺ، وإلى أَذْنَابِها مِنْ سُلَالَاتِ البقَرِ والحَمِيرِ.. ويَالَيْتَهُمْ يَفْقَهُونَ!!

قِئْتِ الخِراءَ [١]، وقَبْلًا قَاءَهُ البَقَرُ ... فَلَيْسَ دُونَكِ في مِرْحَاضِهِمْ قَذَرُ
مَنْ يَرْضَعِ الخُرْءَ [٢] لَا يَسْلُو نَجَاسَتَهُ ... وَطَفْحُ الخُرْءِ، لَا يُبْقِي ولَا يَذَرُ
وقَدْ رَضَعْتِ ضَلالَ الكُفْرِ عَاشِقَةً ... فَلَسْتِ إِلَّا الَّذِي قَدْ غَاطَتِ [٣] الفِكَرُ
وأَرْذَلُ القَوْلِ -لَوْ تَدْرِينَ- أَكْذَبُه ... وشَرُّهُ الفُحْشُ والإسْفَافُ [٤] والدَّعَرُ [٥]
وقَدْ تَهَارَجَ [٦] فِيكِ الزُّورُ أَجْمَعُهُ ... مَعَ البَذَاءِ كَمَا تَسَّافَدِ [٧] الحُمُرُ!!
فكَيْفَ بَاشَرْتِ طُهْرَ الخَطِّ دَاعِرةً ... هَلْ يَفْقَهُ الطُّهْرَ مَنْ في القُدْسِ قَدْ عَهَرُوا [٨]؟!

---

(١) الخِرَاءَ: العَذِرَة.

(٢) الخُرْءَ: العَذِرَة.

(٣) غَاطَتِ: كِنَايَةٌ عَن التَّبَرُّز.

(٤) الإسْفَافُ: إِتْيانُ الحَقيرِ مِن العَمَلِ.

(٥) الدَّعَرُ: الفِسْقُ. الفُجُورُ. الفَسَادُ. الزِّنَى: دَعِرَ: إذا كانَ يَسْرِقُ ويَزْنِي.

(٦) تَهَارَجَ: الهَرْجُ: كَثْرَةُ النِكَاحِ.

(٧) تَسَّافَدِ: تَتَنَاكَحْ.

(٨) عَهَرُوا: عَهَرَ: فجَر وزَنَا في أَيِّ وَقْتٍ كَانَ.

كَيْفَ اجْتَرَأْتِ –بِحَقِّ الله– أَنْ تَردِي ... نَهْرَ الرَّسُولِ، وأَنْتِ الرِّجْسُ والمَذَرُ[(١)]؟!
مَا كَانَ يَكْفِيكِ مَاءُ الأرْضِ مُذْ خُلِقَتْ ... حَتَّى يُطَهِّرَ أَرْجَاسًا بِكِ النَّهَرُ[(٢)]
مَا كَانَ يَكْفِيكِ زَهْرُ الأرْضِ أَعْطَرُهُ ... حَتَّى يُعَطِّرَ نَتْنًا مَلْئَكِ الزَّهَرُ
مَا كَانَ يَكْفِي لِخَطِّ الحَرْفِ مَادِحَةً ... هَذَا الرَّسُولَ، فَذَاكَ العَاطِرُ الطَّهِرُ
مَا كَانَ يَكْفِي وَلِكنَّ الفُؤَادَ غَوَى ... وأَزَّهُ[(٣)] السَّفَهُ المَجْنُونُ والبَطَرُ[(٤)]
فَرُحْتِ تَهْجِينَ خَيْرَ الرُّسْلِ قَاطِبةً ... وأَطْهَرَ الخَلْقِ إِنْ قَالُوا أَو افْتَخَرُوا
ذَاكَ الطَّهُورُ الَّذِي مِنْ طُهْرِ سِيَرتِهِ ... تَطِيبُ مِنْ ذِكْرِهَا الأَخْبَارُ والأَثَرُ
ويُطْرِقُ الطُّهْرُ هَيمَانًا إِذَا ذُكِرَتْ ... وتَسْتَقِي طُهْرَهَا الأَسْحَارُ والمَطَرُ
ويَرْشُفُ الكَوْنُ مِنْ أَنْهَارِهَا نَهَمًا ... كَيْفَ العَفَافُ وكَيْفَ الحُبُّ والوَطَرُ[(٥)]
طُهْرٌ أَفَاضَ طَهُورًا[(٦)] بَيْنَ رَاحَتِهِ ... فَأَنْطَقَ الصَّخْرَ حَتَّى سَلَّمَ الحَجَرُ!
ورَاحَ صَلْدُ الحَصَى مَا بَيْنَ رَاحَتِهِ ... إِذْ لَامَسَ الطُّهْرَ بالتَّسْبِيحِ يَنْهَمِرُ!
وأَسْكَبَ الجَمَلُ المَقْهُورُ عَبْرَتَهُ ... إِلَيْهِ ثُمَّ شَكَا لِلْحِبِّ مَنْ قَهَرُوا!

---

(١) المَذَرُ: الفَسَادُ والخَبْثُ.
(٢) النَّهَرُ: وَاحِدُ الأَنْهَارِ.
(٣) أَزَّهُ: أَغْرَاهُ وهَيَّجَهُ.
(٤) البَطَرُ: الطُّغْيانُ في النِّعْمَةِ: كَرَاهَةُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقَّ الكَرَاهِيةَ.
(٥) الوَطَرُ: كُلُّ حَاجَةٍ كَانَ لصَاحِبِها فيها هِمَّةٌ والمُرَادُ هُنَا: الجِمَاعُ.
(٦) طَهُورًا: الطَّهُورُ: الطَّاهِرُ في نَفْسِهِ المُطَهِّرُ لغَيْرِهِ.

وحَدَّثَ الذِّئْبُ عَنْ أَنْبَاءِ بِعْثَتِهِ ... وخَدَّتِ[١] الأَرْضَ مِنْ شَوْقٍ لَهُ الشَّجَرُ!
وراحَتِ الغَيْمَةُ السَّكْرَى تُظَلِّلُهُ ... وقَرَّ وَحْشُ الفَلَاةِ الشَّارِدُ النَّفِرُ!
يَا حَبَّذَا الطُّهْرُ والقُدُّوسُ وَاهِبُه ... ومَا أَفَاضَ إِلَهِي لَيْسَ يَنْحَسِرُ
فَيَا لِطُهْرٍ هَفَا[٢] قَلْبُ الجَمَادِ لَهُ ... وراحَ يَهْجُوهُ في أَوْطَانِنَا الغَجَرُ!
يَا وَيْحَ عَقْلِي وكَمْ بِالسُّؤْلِ يُرْهِقُنِي ... مَتَى يَحِنُّ إِلَى طُهْرِ الدُّنَا القَذَرُ؟!

***

يَا قَيْئَةَ العُهْرِ: كَيْفَ ارْتَدْتِ سَافِرَةً ... نَبْعَ الحَيَاءِ أَأَعْشَى عَيْنَكِ العَهَرُ؟!
فَرُحْتِ تَهْجِينَ أَحْيَا الخَلْقِ قَاطِبَةً ... مَنْ عَلَّمَ الكَوْنَ كَيْفَ السَّمْعُ والبَصَرُ
ذَاكَ الحَيِيَّ حَيَاءً مِنْ بَرَاءَتِهِ ... يَحْمَرُّ بِكْرُ الحَيَا بَلْ يَخْفِرُ الخَفَرُ[٣]!
وتَكْسِفُ الشَّمْسُ مِنْ أَنْوارِهِ خَجَلًا ... إِنْ عَنَّ[٤] يَوْمًا لَهَا أَوْ يَخْسِفُ القَمَرُ!
ويَخْشَعُ القَلْبُ مِنْ تَذْكَارِهِ وَجَلًا ... بَيْنَ الضُّلُوعِ هُنَا يَهْوَى ويَسْتَتِرُ
فكَيْفَ في ذَا الحَيَاءِ النَّهْرِ قَدْ وَلَغَتْ[٥] ... سُودُ الكِلَابِ وفَرَّتْ نَحْوَهُ الحُمُرُ؟!
فَهَلْ سَبَرْتِ يَقِينًا غَوْرَ[٦] سِيرَتِهِ ... فَهَالَكِ الضِّدُّ مِمَّا يَزْعُمُ البَشَرُ؟!

---

(١) خَدَّتْ: شَقَّتِ الأَرْضَ في سَعْيِهَا إِلَيْهِ ﷺ.
(٢) هَفَا: حَنَّ وتَشَوَّقَ.
(٣) الخَفَرُ: شِدَّةُ الحَيَاءِ.
(٤) عَنَّ: ظَهَرَ.
(٥) وَلَغَتْ: وَلَغَ الكَلْبُ فِي الإِنَاءِ: شَرِبَ فِيهِ بِأَطْرَافِ لِسَانِهِ.
(٦) سَبَرْتِ غَوْرَ: سَبَرَ غَوْرَهُ: خَبَرَهُ وعَرَفَ كُنْهَهُ وسِرَّهُ.

فَهَبَّتِ الرُّوحُ تُجْلِي الحَقَّ ثَائِرَةً ... يَؤُزُّهَا (١) الطُّهْرُ فِي يُمْنَاكِ والخَطَرُ
أَمْ أَنَّهُ الزُّورُ إِذْ أَمْسَيْتِ مَرْتَعَهُ ... وسَوْرَةُ (٢) الحِقْدِ مِلْءُ القَلْبِ والبَطَرُ؟!
فَأَيْنَ حَقُّ الَّذِي عُلِّمْتِهِ زَمَنًا؟! ... وأَيْنَ مِيثَاقُكِ المَزْعُومُ والحَضَرُ؟!
أَيْنَ الأَمَانَةُ؟! هَلْ رَاعَيْتِ حُرْمَتَها؟! ... وكَيْفَ خُنْتِ مَوَاثِيقَ الأُلَى سَطَرُوا؟!
يَا ضَيْعَةَ الحَرْفِ إِذْ تَأْوِي أَمَانَتَهُ ... إِلَى حِيَاضِ الأُلَى بِالحِبِّ قَدْ غَدَرُوا!!
مَنْ لَمْ يَرَ اللهَ فِي مَا خَطَّ نَاظِرُهُ ... فَلَيْسَ يَصْدُقُ فِي مَا خَطَّهُ خَبَرُ
يَا هَذِهِ: لَوْ عَرَفْتِ الصِّدْقَ ثَانِيَةً ... لَكُنْتِ أَعْرَبْتِ مَنْ خَانُوا ومَنْ فَجَرُوا
وكَيْفَ بَاعُوا رِيَاضَ الخَيْرِ خَاصِبَةً ... بِالبَخْسِ حَتَّى بَكَاهَا الجِذْعُ والثَّمَرُ!
وكَيْفَ بَاعُوا التُّرَابَ الحُرَّ وَا أَسَفَى ... حَتَّى تُقَامُ بِهِ فِي قُدْسِنَا الجُدُرُ!
وكَيْفَ عَاثَ (٣) الفَسَادُ الفَجُّ (٤) فِي صَلَفٍ (٥) ... والرَّأْيُ مَا قَدْ رَأَوْا، والأَمْرُ مَا أَمَرُوا!
وكَيْفَ بِالحَانِ (٦) والمَاخُورِ (٧) فِي بَلَدِي ... عَلَى بِغَاءِ البَغَايَا يَسْكَرُ السَّكَرُ (٨)!

---

(١) يَؤُزُّهَا: أَزَّ: أَغْرَى وهَيَّجَ.

(٢) سَوْرَةُ: حِدَّةُ.

(٣) عَاثَ: أَفْسَدَ وأَخَذَ مِنْ غَيْرِ رِفْقٍ.

(٤) الفَجُّ: البَعِيدُ المُتَنَاهِي فِي فَسَادِهِ.

(٥) صَلَفٍ: الصَّلَفُ: الغُلُوُّ فِي الظَّرْفِ مَعَ تَكَبُّرٍ «الكِبْرُ».

(٦) الحَانَ: الحَانَةُ: حَانُوتُ الخَمَّارِ.

(٧) المَاخُورِ: بَيْتُ الرِّيبَةِ ومَجْمَعُ أَهْلِ الفِسْقِ والفَسَادِ وبُيُوتِ الخَمَّادِينَ.

(٨) السَّكَرُ: الخَمْرُ.

وكَيْفَ قَدْ بَلَغُوا بِالسِّعْرِ مَا بلَغُوا ... ونَحْنُ في التُّرْبِ يَغْذُونَا ونَعْتَذِرُ!
وكَمْ أَذَلُّوا جِبَاهَ العِزِّ في وَطَنِي ... حَتَّى غَدَوْنَا بِكَأْسِ الذُّلِّ نَنْتَحِرُ!
وكَيْفَ كَيْفَ إِلَى المِلْيَوْنِ إِنْ تَشَأْيِي ... هَلَّا سَمِعْتِ وهَلَّا أَبْصَرَ البَصَرُ؟!
قَدْ كَانَ يَكْفِي إِذَا مَا كُنْتِ صَادِقَةً ... كَيْ تَذْبَحِي بِسُيُوفِ الحَرْفِ مَنْ فَجَرُوا
قَدْ كَانَ يَكْفِي ويَكْفِي أَلْفَ ثَائِرَةٍ ... لكِنَّهُ الجُبْنُ مِلْءُ القَلْبِ والخَوَرُ[1]
يَأَيُّهَا القَلْبُ كَمْ أَرْهَقْتَنِي أَمَلًا ... هَلْ يُنكِرُ العَهْرَ بَيْنَ النَّاسِ مَنْ عَهَرُوا؟!

٭٭٭

أَمْ -يَا ابْنَةَ الزُّورِ- قَد بَكَّ[2] النُّهَى خَبَلٌ ... حَتَّى عَدَتْ لِشِعَارِ الطُّهْرِ تَبْتَدِرُ[3]؟!
أَمْ أَنَّهُ العَفَنُ المَغْمُورُ غَرَّرَهُ ... حُبُّ الظُّهُورِ فَأَعْمَى قَلْبَكِ الغَرَرُ؟!
فَرُحْتِ تَهْجِينَ رَأْسَ الطُّهْرِ مَنْ فَتِيَتا ... عَدَوًا وَرَاءَ مَدَاهُ الشَّمْسُ والقَمَرُ؟!
فكَيْفَ رُمْتِ صُرُوحَ المَجْدِ سَافِلَةً ... هَلْ يَبْلُغُ المَجْدَ مَنْ في الوَحْلِ قَدْ مَخَرُوا[4]؟!
لَئِنْ صَعِدْتِ فَنَحْوَ القَاعِ قَدْ صَعِدَتْ ... مِنْكِ الرَّزَايَا، وحُقَّ المَنْزِلُ الكَدِرُ
لَئِنْ صَعِدْتِ، فَعَرْشُ الكُفْرِ جَاثِمَةٌ[5] ... عَلَى رُؤُوسِ البَغَايَا والأُلَى كَفَرُوا!!

٭٭٭

(١) الخَوَرُ: الضَّعْفُ والانكِسَارُ.
(٢) بَكَّ: خَرفَ وفَرَّقَ: دَقَّ العُنُقَ.
(٣) تَبْتَدِرُ: ابْتَدَرَ القَوْمُ أَمْرًا: بَادَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهِ: أَيُّهُمْ يَسْبق إِلَيْهِ فَيَغْلِبُ عَلَيْهِ.
(٤) مَخَرُوا: مَخَرَت السَّفِينةُ: جَرَتْ تَشُقُّ المَاءَ مَعَ صَوْتٍ: اسْتَقْبَلت الرِّيح في جَرْيهَا.
(٥) جَاثِمَةٌ: جَثَمَ: لَزِمَ مَكانَه فَلَمْ يَبْرَحْهُ: وقيلَ: أَن يَقَعَ عَلَى صَدْرِه.

أَمْ هَلْ دَهَاكِ بَرِيقُ المَالِ فاهْتَرَأَتْ (١) لَهُ اليَدَانِ وأَغْوَى قَلْبَكِ النَّضَرُ (٢)؟!
فَرُحْتِ تَلْغِينَ (٣) في ذَا الطُّهْرِ سَافِرَةً وسَطَّرَ الغَيُّ مَا أَمْلَاهُ مَنْ أَجَرُوا؟!
فَالْيَوْمَ أَخْفَى عِدَاةُ الطُّهْرِ نَبْحَهُمُ واسْتَنْبَحَ المَالُ مَنْ بَاعُوا ومَنْ تَجَرُوا
قَدْ يَبْلُغُ المَالُ فِي أَحْشَاءِ مَنْ دَنِسُوا مَا يَبْلُغُ الطُّهْرُ فِي أَرْوَاحِ مَنْ طَهُرُوا!!
فكَيْفَ بِعْتِ جَلَالَ الدِّينِ خَاسِرَةً وصِرْتِ ذَيْلًا لِمَنْ ضَلُّوا ومَنْ خَسِرُوا؟!
يَا لِلْعَفِيفَةِ والأَهْوَالُ تَسْحَقُهَا فَتَمْضَغُ التُّرْبَ مِنْ جُوعٍ ولَا تَزِرُ
غَدًا سَيَفْنَى الَّذِي أَغْرَتْكِ نُضْرَتُه ويَلْزَمُ العَارُ مَنْ عَاشُوا ومَنْ قُبِرُوا

أَمْ - يَا ابْنَةَ الجُبْنِ - قَد أَغْرَاكِ مَنْ صَمَتُوا مَنْ أَدْمَنُوا النَّوْمَ إِنْ مَا حَصْحَصَ (٤) الخَطَرُ؟!
إِنَّ الكُرُوشَ بِأَكْلِ السُّحْتِ قَدْ مُلِئَتْ فَنَامَ فَوْقَ حَشَاهَا الرَّأْسُ والدُّبُرُ!!
فَإِنْ أَفَاقَتْ عَلَى لَحْنِ الهَوَى سَكِرَتْ فَعَاثَ بَيْنَ ثَنَايَا عَقْلِهَا الخَدَرُ
فَمِلْؤُهَا الجُبْنُ فِي سِلْمٍ ومُعْتَرَكٍ يَنْدَى لِذَا الجُبْنِ فِي أَعْمَاقِهَا الخَوَرُ
القَوْمُ لِلزُّورِ عَاشُوا مُنْذُ مَوْلِدِهِمْ ولَيْسَ لِلدِّينِ فِي أَعْمَاقِهِمْ أَثَرُ!!
والرُّؤْسُ لَمَّا لِغَيْرِ اللهِ قَدْ سَجَدَتْ بَالَتْ عَلَى ذُلِّهَا الفِئْرَانُ والهِرَرُ

(١) هَرَأَ في مَنْطِقِه: أَكْثَر في خَطَإٍ أو قَالَ: الخَنَا والقَبِيحَ.
(٢) النَّضَرُ: النَّضْرُ: الذَّهَبُ والفِضَّةُ.
(٣) تَلْغِينَ: لَغَا: تكَلَّم باللَّغْو: وهُوَ السَّقْطُ ومَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلامٍ وَغيْرِه ولا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلى نَفْعٍ ولَا فَائِدَةٍ: عَدَلَ عن الصَّوَابِ: قالَ بَاطِلًا: خَابَ.
(٤) حَصْحَصَ: ظَهَرَ وبَرَزَ.

أَمَا وَرَبِّ الوَرَى لَوْ شِيكَ كَلْبُهُمُ بِهَمْسَةِ الطَّلِّ (١) مَا كَانُوا لِيَنْتَظِرُوا
لَفَتَّشُوا الكَوْنَ عَنْ آثَارِ هَمْسَتِهِ حَتَّى «يُبَلِّغَ» عَنْ أَخْبَارِهَا المَطَرُ
وحَرَّزُوا «الوَرْدَ» إِذْ نَدَّتْ «بَرَاعِمُهُ» وفَجَّرُوا هَمْسَهَا القَتَّالَ وانْفَجَرُوا!
أَمَّا إِذَا سُبَّ خَيْرُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ وقَالَ فِي عِرْضِهِ الشُّذَّاذُ والبَقَرُ
فَالقَوْمُ عَنْ ذَاكَ قَدْ صُمَّتْ مَسَامِعُهُمْ بَالَ اللَّعِينُ بِهَا واسْتَفْحَلَ الوَقْرُ (٢)
وإِنْ تَعَالَتْ مِنَ الدَّهْمَاءِ (٣) صَيْحَتُهُمْ هَانَ الصِّيَاحُ عَلَى الآذَانِ والهَذَرُ
وإِنْ تَمَادَى الصُّرَاخُ الحُرُّ واحْتَدَمَتْ مِنْهُ القُلُوبُ فَتَنْفِيسٌ ومُؤْتَمَرُ
يَخْنُو الهِجَاءُ لَدَى أَحْدَاثِهِ غَزِلًا لِكِنَّهَا خَفِرُ الآهَاتِ.. مُخْتَصَرُ
حَتَّى يَحُطَّ عَلَيْهِ الوَحْلُ لَافِتَةً مَاتَ الأَعَالِي فَلَا حِسٌّ ولَا خَبَرُ
بِئْسَ الرُّؤُوسُ إِلَى نَعْلِ العِدَا سَجَدَتْ تَبُوسُ أَسْفَلَ نَعْلَيْهَا وتَعْتَذِرُ!!
بِئْسَ «الرُّؤُوسُ» وبِئْسَ المَالُ سَائِقُهَا وبِئْسَ حَادٍ لَهَا فِي «رَعْيِهَا» الحَذَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا أُنُوفٌ لَمْ تَعُدْ أُنُفًا (٤) عَارٌ عَلَى رُؤْسِهَا التِّيجَانُ والدُّرَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا أَنَاشِيدٌ لَهَا ابْتُدِعَتْ عَارٌ عَلَى صَمْتِهَا أَلْقَابُهَا الغُرَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا القُصُورُ البِيضُ شَاهِقَةً قَدْ كَانَ أَوْلَى بِهَا -بَيْنَ القَذَى- الحُفَرُ

---

(١) الطَّلُّ: المَطَرُ الصِّغَارُ القَطْرِ الدَّائِمُ، وهُو أَرْسَخُ المَطَرِ نَدًى.
(٢) الوَقْرُ: ثِقَلٌ فِي الأُذُنِ.
(٣) الدَّهْمَاءُ: جَمَاعَةُ النَّاسِ وكَثْرَتُهُمْ.
(٤) أُنُفًا: كَلأٌ أُنُفٌ: إِذَا كَانَ بِحَالِهِ لَمْ يَرْعَهُ أَحَدٌ ولَمْ يُوطَأْ.

أَمْ -يَا ابْنَةَ الجُبْنِ- قَدْ أَغْرَتْكِ عَقْلَتُنَا ... وغَيْبَةُ العَقْلِ فِي ذَا الشَّعْبِ والخَدَرُ
شَعْبٌ تُطِيحُ بِهِ أَنْغَامُ أُغْنِيَةٍ ... فَيَرْقُصُ «الكِرْشُ» و«الأَطْرَافُ» و«الدُّبُرُ»
وتَسْكُنُ الرَّأْسَ مِنْ تَفكِيرِهِ كُرَةٌ ... حَتَّى تَكَادُ بَضَرْبِ «النَّعْلِ» تَنْفَجِرُ
يُلْهِيهِ «فِلْمٌ» و«حَلْقَاتٌ مَسَلْسَلَةٌ» ... والكَوْنُ مِنْ حَوْلِهِ.. يَغْلِي ويَسْتَعِرُ!!
حَتَّى تَقُومَ عَلَى الدُّنْيَا قِيَامَتُهَا ... والشَّعْبُ فِي غَيِّهِ رَاءٍ ومُنْتَظِرُ!!
شَعْبٌ يُجَاهِدُ «فَالتِّلْفَازُ» مَلْعَبُهُ ... والرُّؤْسُ[1] «لِلْمَلْعَبِ الفِعْلِيِّ» قَدْ والزَّهَرُ
شَعْبٌ بِحُبِّ رَسُولِ الله مُهْجَتُهُ ... تَفِيضُ حَتَّى يَرِفَّ المَرْجُ والزَّهَرُ
لِكنَّهُ خَامِلٌ فِي الحُبِّ ذُو دَعَةٍ ... والحِبُّ يُؤْتَى ولَا يَأْتِي الأُلَى خَدَرُوا
شَعْبٌ يَثُورُ لِمَنْ يَهْوَى لِثَانِيَةٍ ... كَالنَّارِ فِي لَحْظَةٍ تَعْلُو فَتَحْتَضِرُ!!

❊❊❊

إِنْ كَانَ أَغْرَاكِ فِي آرَاسِنَا[2] خَوَرٌ ... والجُبْنُ فِي شَعْبِنَا والنَّوْمُ والهَذَرُ
فَبَيْنَنَا الأُسْدُ والأَهْوَالُ لَعْبَتُهَا ... ودَيْدَنُ الشِّبْلِ -لَوْ تَدْرِينَهُ- الظَّفَرُ
تَمُوتُ دُونَ حِمَاهَا لَيْسَ تُسْلِمُهُ ... وإِنْ تَدَاعَتْ لَهَا الذُّؤْبَانُ والبَقَرُ
وتَحْفَظُ العَهْدَ حَتَّى المَوْتِ عَاشِقَةً ... ذَاكَ الوَفَاءُ، ونِعْمَ المُرْتقَى الوَعِرُ
فِي كُلِّ ثَغْرٍ لَدَى مِنْهَا جَنَا أُسُدٌ ... فَكَيْفَ تَخْلُصُ مِنْ آسَادِنَا الحُمُرُ

---

(١) الرُّؤْسُ: جَمْعُ كَثْرَةٍ مِنْ رأْسٍ (عَلَى الحَذْفِ).
(٢) آرَاسِنَا: جَمْعُ قِلَّةٍ مَنْ رَأْسٍ (عَلَى القَلْبِ).

وخَـيْرُ آسَـادِنَا أَعْـلَامُ شِرْعَتِنَـا مَـنْ قَـدْ غَـذَا [(١)] قَلْبَـهُ القُـرْآنُ والأَثَـرُ
قَـدْ أَوْقَفُـوا لِكُنُـوزِ الحَـقِّ أَنفُـسَهُمْ واسْتَخْلَـصُوهَا فبَـانَ التِّـبْرُ والـدُّرَرُ
وبَيَّنُـوا الحُـسْنَ نُـورًا مِـلْءَ سِـيَرتِهِ مِمَّـا اسْـتَنَارَتْ بِـهِ الأَخْبَـارُ والـسِّيَرُ
وأَوْضَـحُوهَا فَـذِي أَنْـوَارُ سِـيرَتِهِ بَيْضَاءُ تَغْشَى لَهُـنَّ الأَنْجُـمُ الزُّهُـرُ [(٢)]
تِلْـكَ الأُسُـودُ وفَـضْحُ الـزُّورِ دَيْـدَنُهَا للهِ مَـا حَـدَّثُوا.. للهِ مَـا سَـطَرُوا
فَلْتَهْرِفُوا الزُّورَ مِـنْ مِرْحَاضِـكِمْ قَـذَرًا حَتَّـى يُبِـينَ النَّقَـاءَ الأَطْهَـرَ القَـذَرُ
إِنْ يَحْلُكِ اللَّيْـلُ تَقْـلُ [(٣)] العَـيْنُ ظُلْمَتَـهُ وتُـدْرِكِ العَـيْنُ مَـا الأَبْـدَارُ مَـا القَمَـرُ
عِبْـتُمْ مَقَـامَ رَسُـولِ اللهِ فَـانْتَبِهُوا لِـذَلِكَ الطُّهـرَ مَـنْ بَـرُّوا ومَـنْ فَجَـرُوا
فَـأَدْمَنُوا الطُّهْـرَ فِي أَنْهَـارِ شِرْعَتِـهِ وغَـاصَ فِي لُجِّهَـا الأَفْـرَادُ والزُّمَـرُ
إِنْ يَنْـبَحِ الكَلْـبُ فِي الأَبْـدَارِ رَوْعَتَهَـا يَهْـفُ الفُـؤَادُ إِلَى الأَبْـدَارِ والنَّظَـرُ
فَلَـوْ عَلِمْـتِ الأُلَى فَـاؤُوا لـشِرْعَتِنَا لَمـتِّ غَيْظًـا ورَاحَ الكُفْـرُ يَنْتَحِـرُ
تِلْكَ الأَقَاحِي [(٤)] قَلَتْ أَرْجَاسَ بِيئَتِكُمْ أَنْتُمْ أَسَـاسُ القَـذَى والمَوْرِدُ العَكِـرُ؟!

---

(١) غَذَا: أَطْعَمَ.
(٢) الزُّهُرُ: الزُّهْرُ: الأَبْيَضُ النَّيِّرُ وهُوَ أَحْسَنُ الأَلْوَانِ.
(٣) تَقْلُ: قَلَا: أَبْغَضَهُ وكَرِهَهُ غَايَةَ الكَرَاهَةِ فتَرَكَهُ.
(٤) الأَقَاحِي: جَمْعُ الأُقْحُوَانِ: نَباتُ الرَّبيعِ مُفَرَّضُ الوَرَقِ دَقيقُ العِيدَانِ، له نُورٌ أَبْيَض كَأَنَّهُ ثَغْرُ جَارِيَةٍ حَدِثَةِ السِّنِّ.

شكْرًا لِنَبْحِ هَدَى قَوْمًا لِشِرْعَتِنَا لَوْلَا النُّبَاحُ لَمَا فَاؤُوا ومَا اعْتَبَرُوا!!
فَلْتُدْمِنِي النَّبْحَ، فَالأَذْكَارُ تَعْقُبُهُ عَسَى يَفِيءُ الشَّرِيدُ الغَافِلُ الكَفِرُ
مَا لِي أَرَاكِ سَئِمْتَ النَّبْحَ وَا أَسَفَى هَلْ هَالَكِ الذَّبُّ (١) والغرُّ الأُلَى نَفروا؟!
لَنْ تَسْأَمِيهِ فَأَنْتِ النَّبْحُ مَعْدَنُهُ إِنْ يَسْأَمِ الكَلْبُ نَبْحًا يَنْبَحِ البَقَرُ
كَمْ يَنْصُرُ اللهُ بِالأَعْدَاءِ شِرْعَتَهُ وأَهْلُهَا النَّوْمُ مَا هَبُّوا ولا انْتَصَرُوا
يَا هَذِهِ لَوْ أَرَدْتُمْ نَيْلَ شِرْعَتِهِ فَذَا مُحَالُ الهَوَى بَلْ دُونَهُ العُمُرُ
فَلْتُطْفِئُوا الشَّمْسَ إِنَّ الشَّمْسَ مَسْرَحُهُ حِينَ النَّهَارِ ومَسْرَى لَيْلِهِ القَمَرُ
قَدْ زَادَنَا فُحْشُ مَا أَلْقَيْتِهِ أَلَقًا (٢) كَمَا اليَوَاقِيتُ إِذْ تَجْتَاحُهَا السُّعُرُ
فَمَا رَمَى السُّوءُ مِنْكُمْ طُهْرَ مِلَّتِهِ إِلَّا اسْتَبَقْنَا لِذَاكَ الطُّهْرِ نَبْتَدِرُ
حَتَّى ارْتَوَيْنَا بِذَاكَ الطُّهْرِ واغْتَسَلَتْ بِهِ القُلُوبُ وفَاحَ الطُّهْرُ والزَّهَرُ
وراحَ يَنْشُرُ مِلْءِ الكَوْنِ سِيرَتَهُ فَيَنْشَقُ (٣) الكَوْنُ رَيَّاهَا (٤) .. ويَعْتَذِرُ
ويَرْشُفُ (٥) الطُّهْرَ مِنْ أَسْفَارِهَا (٦) نَهَمًا رَشْفَ الرَّحِيقِ ويَرْوِي جَذْبَهُ النَّهَرُ

---

(١) الذَّبُّ: الدَّفْعُ والمَنْعُ.
(٢) أَلَقَا: أَلَقَ: لَمَعَ وأَضَاءَ أَلْقًا.
(٣) يَنْشَقُ: يُدْنِي الشَّيءَ من خَيَاشِيمِهِ لِيُدْخِلَ رِيحَهُ إِلَيْهَا: يَشُمُّ.
(٤) رَيَّاها: الرَّيَّا: الرَّائحَةُ الطَّيِّبَةُ.
(٥) يَرْشُفُ: يَشْرَبُ مَصًّا.
(٦) أَسْفَارِهَا: الأَسْفَارُ: الكُتُبُ الكِبَارُ وَاحِدُهَا سِفْرٌ.

وَيَنْــذِرُ الــنَّفْسَ أَنْفَاسًــا لِدَعْوَتِــهِ نُــورَانِ زَادَاهُ: قَــوْلُ الحِــبِّ والــسُّوَرُ
فَــمَا أَرَدْتِ أَرَدْنَــا نَــشْرَ سِــيرَتِهِ حَتَّــى يُبَلِّــغَ عَنْــهُ الــصَّخْرُ والمَــدَرُ [1]
يَـا هَـذِهِ قَـدْ رَشَـفْنَا الطُّهْـرَ مِـنْ يَـدِهِ فَكَــانَ هَــذَا العَفَــافُ الرَّائِــقُ الطَّهِــرُ
بِــهِ نَعِــيشُ لَــدَى الجَنَّــاتِ أَفْئِــدَةً يُدَاعِبُ الطُّهْرَ شفى أَبْصَارِنَا الحَــوَرُ [2]
وتِلْكَ أَجْـسَادُنَا في الأَرْضِ مَـا بَرِحَـتْ تَرْوِي بُذُورَ الهُدَى في قَلْبِ مَـنْ فَجَـرُوا
هُــوَ الحَبِيــبُ الَّــذِي للهِ أَرْشَــدَنَا فَــالرُّوحُ تُحِبُّــهُ والــسَّمْعُ والبَــصَرُ
وكُــلُّ شَيْءٍ بِنَــا في اللهِ يُحِبُّــهُ حَتَّــى تكَــادُ بِــذَاكَ الحُــبِّ نُحْتَــضَرُ
وكَــمْ تَتُــوقُ إِلَى رُؤْيَــاهُ أَعْيُنُنَــا ويَــذْهَبُ الأَهْــلُ والأَمْــوَالُ والعُمُــرُ
فَهَــلْ نَــضِنُّ بِــأَرْوَاحٍ بِــهِ طَهُــرَتْ إِذَا أَرَادَ حِمَــاهُ النَّــتْنُ والقَــذَرُ؟!
تَفْدِيــهِ مِنَّــا النُّفُــوسُ الــشُّمُّ شَــائِقَةً لِــذَا المَقَــامِ الَّــذِي مَــا فَوْقَــهُ وَطَــرُ
نَفْدِيــهِ لَــوْ قَطَّعُونَــا بِالمُــدَى إِرَبًــا وصَــوَّتَتْ بِحَنَايَــا رُؤُوسِنَا الــدُّسُرُ [3]
يَفْدِيــهِ كَــوْنٌ بِمِــلْءِ القَلْــبِ يَعْــشَقُهُ نَمْــلُ الثَّــرَى والنَّــدَى والطَّــائِرُ النَّــسِرُ

(١) المَدَرُ: قِطَعُ الطِّين اليَابِسِ المُمَاسِكِ الذِي لَا رَمْلَ فيه.
(٢) الحَورُ: أَنْ يَشتدَّ بياضُ بَيَاضِ العَينِ وسَوادُ سَوَادِهَا وتشديدَ حَدَقَتِها وتَرِقّ جُنونُها وبَيْيَضّ مَا حَوَالَيْها.
(٣) الدُّسُرُ: جَمْعُ الدِّسَارُ: المِسْمَارُ.

مَــنْ يَنْــصِرِ اللهُ مَنْــصُورٌ ومُنْتَــصِرٌ والله مِــنْ قَبْلِــهِ مِــنْ بَعْــدُ نَــاصِرُهُ



وصَلَى الله على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبه وسلَّمَ.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس].

وكتَبَهَا الفقيرُ إلى رَبِّهِ

عَبْدُ اللهِ بنُ حُسَينٍ العَفانيُّ

السادسة صباح الثلاثاء

١٩ من صفر سنة ١٤٢٩هـ - ٢٦ من فبراير سنة ٢٠٠٨م